مصطفى جمال الدين

مراقيون

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (2417) السنة التاسعة

الخميس (8) اذار 2012

6

مصطفى جمال الدين.. عالماً وأديباً وشاعراً

تأملات في توظيف المفارقة عند مصطفى جمال الدين

كثيرة هي الوسائل التي توسل بها المبدعون لشحذ اساليبهم وحشد المعاني فيها، وبينها وسائل جمعت بين ذلك الهدف وبين تمويه تلك المعاني او إخفائها في ثنايا عملية ايحاء او إضمار ،ولعل ابرز تلك الوسائل الفنية هي اعتماد المفارقة اسلوبا للتعبير الابداعي

واذا كانت المفارقة على انواع وتحت عناوين شتى وتحقق اكثر من هدف فإن المفارقة المنطوية على المتضادات إكتسبت مكانة متميزة بين انواع المفارقة، بل ان هناك من يعرّف المفارقة بانها جمع المتضادات او تشغيلها معا على صعيدي اللفظ او الموقف او على صعيديهما معا،وما ذلك إلا لطاقتها التعبيرية فاهيك عن ان المفارقة عموما تنفتح على معان عديدة يشترك في بثها المبدع والمتلقي معا.

قاسم عبد الأمير عجام
اديب عراقي راحل

وقد احتلت المفارقة كوحدة اسلوبية مكانة مهمة في الابداع الادبي، قصة أو شعرا، فئمة قصص وقصائد تعتمدها كليا أو جزئيا لما يتيحه ادب المفارقة من احتمالات متعددة حتى ليغرض عليه د . سي . ميوميك شرط ان يكون "مشتملا على السطح والعمق،الغشاوة والصفاء،كما يجب ان يستحوذ على انتباهنا على مستوى الشكل إذ يوجهنا نحو مستوى المحتوى"،وبالنسبة لقصيدة المفارقة بالذات"يجب ان تعنى وتكون معا " (د . سي . ميوميك : المفارقة – ترجمة د . عبد الواحد لؤلؤة – سلسلة موسوعة المصطلح النقدي – وزارة الثقافة والاعلام – بغداد ١٩٨٢ – ص ١١-١٢).

ولعله يتفق مع هذا الفهم اعتماد العديد من كبار الشعراء المفارقة في العديد من قصائدهم، فقد استخدمها الجواهري واستخدمها من المحدثين محمود درويش،وها نحن بين يدي شاعر كبير عُرف بتعدد مواهبه وعطاءاته في محاولات الشعر وعروضه والفقه والسياسة والنحو وهو يعتمد المفارقة في بناء قصيدته .. انه الشاعر مصطفى جمال الدين .. فكيف وظّف المفارقة وأي نوع من انواعها اعتمد في قصيدته.

كي نجيب عن هذه التساؤلات إخترنا أن نقف عند قصيدة قديمة من قصائده، ويشجعنا على اختيارها، فضلا عن اعتمادها المفارقة بنية مهيمنة، كونها تسمح برؤية مصطفى جمال الدين السياسي في اهاب الشاعر بل وحتى بقراءة موقفه السياسي،اما إذا وقفنا عند قصيدة من اواخر شعره ورأينا فيها ميله لإعتماد المفارقة بالاسلوب إيّاه فيمكننا ان نجد مبررا مضافا لقراءة المفارقة في شعر مصطفى جمال الدين،وهذا ما نحاوله هذه الورقة ونحن نقف عند قصيدته التي نشرت تحت عنوان "بغداد في عيد الأدب "في مجلة "الاقلام" بعددها الخاص بإنعقاد مؤتمر الادباء العرب الخامس ومهرجان الشعر السادس في بغداد – شباط ١٩٦٥ " الاقلام – الجزء ٨ – السنة الاولى – نيسان ١٩٦٥ ص ١٤١-١٤٤ " ثم ننظر في قصيدة "الفقيدان" التي رثى بها صديقه السيد عبد الزهراء الحسيني ونشرتها مجلة "المواسم" بعددها ٢٠-١٩٩٤ الى جانب كلمة له تتضمن ابياتا أخرى له.

×××××

١ – أية مفارقة ؟

قامت قصيدة "بغداد في عيد الادب" على التضاد صورا ومواقف، ونرى ان استحضار تلك المفارقة واداة حركة القصيدة حول العلاقات المتضادة لم يأت لمجرد حفز الدهشة او اثارة الاستغراب بقدر ما جاء نتيجة وعي بتاريخ المدينة وحقيقة العوامل التي تصارعت على ساحتها فشكلت صورتها التاريخية التي امتدت الى راهن الشاعر، وبذلك نحقق للقصيدة إنسجام الشكل والمضمون.

١-١الاستهلال:

وكجزء من ذلك الوعي جاء مفتتح القصيدة حاشدا بعلاقات التضاد التي اختيرت بعناية تحقق الإدهاش وحضور التاريخ مكثفا في ذات الوقت الذي شفت عن ذات الشاعر واعتزازه ببغداده ملخصا إيّاها بما يشبه الابتداء من النهاية كما في السينما.

اجل .. وكذلك كانت حركة القصيدة، فقد بدأت من لحظة بغداد التي انتهت اليها .. حاضرة تكسرت على تاريخها نصال العصور فذوت لتبقى في إخضرار العُمر .. كما لخصها البيت الاستهلالي ....

بغداد ما اشتبكت عليك الاعصر إلا نوت ووريق عمرك أخضر

وعزّزها البيت الذي تلاه إذ يتجسد التضاد بين إشراق بغداد وظلمة الدنيا التي مرّت بها،ويستمر مؤكدا روح التحدي في بغداد وروح الشاعر معا في كل ابيات مقطع الاستهلال المتكون من تسعة أبيات تتنقل بين خلاصات تؤكد تلك الروح المتحدية بل وحتى الوثابة.

ومما عمّق من تلك الروح،ان ابيات المقطع قامت على تضاد في اللفظ والصور والموقف، إذ في البيت الثالث..الروع والقسوة في فعل الحادثات .. فإذا القاسي مرتاع باحتمال من وقعت عليها القسوة؛ ويجتمع سوم العذاب والدلال والجوع والشبع والنور والظلمة لا إجتماع تجاور او تراصف وانما سريان فعل وفعل مضاد،فبرغم شدة الجوع التي كنّفها الشاعر بتناقض "الشبع جوعا" تبقى عافية البهاء مكثفة بصورة الصبر الناهد على شدة الجوع وبقاء الفكر النير يتحدى الظلمة !

إزاء تلك الصورة البهية،المعافاة، المتحدية بالرغم من القسوة والظلام والظلم والسياط، يجد الشاعر نفسه مطالبا بايضاح مسوغات تلك الصورة ومنها درج مستعيدا ماضي المدينة، فهل استطاعت مقاطع أو اركان القصيدة التالية ان تنسجم مع المقطع الافتتاحي كما يتطلبه الاستهلال الناضج؟ نزعم أن نعم،وهو ما نجده في التأملات التالية :

٢ – وعي العناصر المتضادة .. وعي الصراع

على صعيد الاسلوب .. استمرت المفارقة،ومفارقة التضاد بالذات،تحكم بناء المقاطع كافة بل وبناء البيت الواحد في الاغلب، مما يشير الى سعي الشاعر للتوغل عميقا في مفردات الصراع الذي كوّن صورة بغداد عبر التاريخ وحتى الحاضر،وبذلك دليل على وعي الشاعر لتاريخ المدينة واستيعابه حركة العوامل المؤثرة فيه وهو ما سنقرأ خلاله صورة السياسي في الشاعر،وكل ذلك يعزز الصلة بين الاستهلال ووحدات بناء القصيدة وعوامل حركتها مما منحها وحدة عضوية شعّت بروح سردية كثفت حركة التاريخ الاسلامي والمعاصر في رسم صورة بغداد. ومما يوجب على الدارس الوقوف عنده في بناء مفارقة التضاد،قوة التعبير وكفاءة الايحاء عبر المتضادين في استكمال الصورة خلال استكمال متتال لكل لقطة أو خط من لقطات الصورة أو خطوطها.

ففي المقطع الثاني نجد ذلك في اكثر من بيت من ابياته، فمن حرقة الهوى بنار الدجى فتتصل ليالي السمر بوهج الضحى (البيتان٢ و٣) كناية عن شدة الوله والإنغماس في السمر، وعن الثقة بالنفس وهيبة القوة، يكني الشاعر بتهدج الصوت في رصافة بغداد لتحفل الاقصر في صعيد مصر وما كان لها ان تجفل لولا قوة ذلك الصوت ومهابته (البيت الخامس).

وإذا تهدج بالرصافة صوته

جفلت بمصر على صداه (الاقصر)

يعزز ذلك، البيت الثامن وهو الاخير في هذا المقطع إذ يجتمع على شفة القائد العباسي كأس الحب والشوق الى كأس الحميه !!

فيرد كأس الحب عن شفة بها

شوق الى كأس الحمية أسمر

٢-١ وعي العلم ... رجل العلم

وفي المقطع الثالث تصعيد في مسار الكشف عن عناصر مجد بغداد بالاسلوب إيّاه .. انه مقطع للعلم في حضارة بغداد وهو بشاعرية السيد جمال الدين استقطار واع لمجد رجل العلم وصبره وتضحيته وعطائه !.. وبتلك الشاعرية و وعي الشاعر للعلم واخلاقياته، حققت مفارقة التضاد انجازا متألقا.

فإذ يتسمر طرف العالم في المستنصرية بالحروف المؤتلقة ساهرا يصقل المواهب، تتعبر عيون النجوم التي يفترض انهاو السهر شيء واحد(البيتان ١ و ٢ من المقطع) يظما والكأس تفيض دونه لأنه لا يمكر ولا يخدع بالسراب ولكي يقيت جيلا يتضور جوعا للعلم، يشوي روحه بلهب العلم القدسي .. يشعر الصباح ببراعه فيبدد الدجى يعيش مهزولا وبقلبه "امم وتسمن من حشاه العبر"!وفي محرابه ورحاب علمه تكتسب الاجساد – الطين أرواحها !! وتلك كناية رفيعة عن فعل العلم الخلاق...

نأتيه أجسادا فيصنع روحها

والطين لولاه الكثير الأوفر

يستطيع الدارس ان يتأمل في بناء ومفردات هذا المقطع، ان يقرأ سطورا من شخصية مصطفى جمال الدين العالم الباحث،حيث المسؤولية تحيل العالم المعلم شعاعا ينير الظلمات،و رياً يروي العطاشى للمعرفة،بعطائه تقوم أمم وتمتلىء معرفة ويهزل صبرا ! ثم لا يجد ملخصا لكل ذلك اكثر كثافة من ان يكون العالم مانح المعرفة .. مانح الروح للاجساد !!

ومن كان هذا فهمه لمسؤولية العلم / العالم،لم يعد غريبا عليه ان يجتمع فيه الشاعر والنحوي والفقيه والسياسي ومن يستطيع ان يحشد المفارقة بتلك المعاني واجتماع عوامل الصراع، لن يعجزه ان يكون عروضيا،كما كان مصطفى جمال الدين،كل اولئك في واحد .. ومن كان ذاك كله فلن يكون السياسي فيه إلواعيا لجذر الحراك السياسي وأصله الطبقي المدجج بالسلطة ووعاظها .. وهو ما يجلوه شعرا،المقطع الخامس في هذه القصيدة وما تلاه ....

٢ – ٢ السياسي

في تأملنا لهذا المقطع نقف عند قضية نالت من التشويه شيئا كثيرا، ونجاحه في السنوات الاخيرة التي حاولت أو حاول فيها الشكلانيون ان يقطعوا بين الشاعر والسياسي بهدف قطع العمل الابداعي عن مرجعياته الاجتماعية .. فعلت اصوات من ينفي اجتماعهما.

هنا،نجد الرؤية السياسية تذهب الى مفردات تفصيلية في بناء لا يختلف اثنان في شعريته،واذا كانت بنى هذه القصيدة هي المفارقات المتضادة منذ استهلالها فانها في وحدة خوضها في الشأن السياسي تذهب في حشد المفارقة بالشعر والمعنى شوطا هو الابعد في مدارات القصيدة .. ولكي يحقق الشاعر ذلك مدّ بين مجد بغداد العلمي،كما رأيناه في مقطع ساهر العرش / المنبر ما دام قد قام على حساب الشعوب:

بغداد أن لك الأوان لتحطبي

خشبا بآلاء الشعوب تنضر

ومع تعميق الدعوة للانتفاض تتضح صور اخرى من سلوك الحكام الظلمة وسنرى ان تلك الصور ستتابع مجسدة من خلال المفارقات التي يحشدها الشاعر:

× ابتزاز جهد المبدعين – لايحتمله المجد ا لفاره

× ليالي القصف،البطر،الطرب ورقص الجور – كناية عن هدر المال العام بالضد من التفاعل مع اصحاب المال الشرعيين المعبّر عنهم (بالسواد).

×في ممارسات هدر المال العام .. صوت عال .. رنين طرب وضجة رقص وليال قصف وبطر .

اما اذا – واذا اداة شرط غير جازمة – تطلعوا مجرد تطلع للسواد، فالصوت النقيض

"بحّ الرنين به وغاض العصفر" !

٢ – ٣ – ١ . الثورة منطق العصر

ولكي يتعزز منطق الدعوة للثورة ويعلو صوته،يستنطق الشاعر عصره ويستشهد بزمنه الذي لابد ان تكون بغداد في القلب منه،وأول ما يقرأ من ملامح هذا العصر كونه ينفي الفكر الاجير ولغة المفاخر المتهرئة ويرفض القلم المنافق .. وإذ نقف عند الابيات التي تبدأ بـ ....

بغداد لم يعد الزمان كأمة

فكرا تباع،وخاطرا يُستأجر

حتى نهاية هذا المقطع ومجموعها (١١) احد عشر بيتا نجد الشاعر لايستنطق عصره فقط ولا يعزز دعوته للثورة فقط،وانما نجده يرسم صورة الاديب المفكر الذي ينتمي لهذا العصر وهي الصورة التي تمهد لاستشراف صورة بغداد المتحررة من العسف وذل القلم المنافق ومدعي الفكر والحاكم الجاهل ووعاظ سلطانه .. فلا يليق ببغداد ان تخضع لـ:

هزيل رأي أسمنته على الطوى

قيم بما يضوي عليه مفكر

حيث يصعر المستبد خده مزؤقا بريشة الشاعر الكذوب، ليليق بها فقد سقط الاديب الاجير الذي كان " يُسَبح حاكما ويكبر" .....

وتهرأت لغة المفاخر فانطوى

(لقب) و(أوحش لابسيه مفخر

ولا بد ان تجرد بغداد سيف فكر بديل ينسجم مع عصر الثورة،وهنا في رسم ملامح هذا الفكر وأقلام مبدعيه تتتابع الاضداد بين أفول وشروق،وهدم وبناء:

واليوم عاد وليس غير يراعه

سيف تراع به الطغاة وتذعر

وعلى شموخ ضميره يسمو له

ما بين ادنى حاضنيه المنبر

وبما تهدم من بقايا روحـه

يبني عزائم جيله ويعمـر

فقد اصبح الاعزل الذي لا يملك سوى يراعه سيفا يروع الطغاة ويبث الذعر فيهم !! ولنتأمل في تجاور مفردتي اليراع وتراع وجمال إستلال العلاقة المولدة بينهما في هذا البيت .. وبدلا من المنبر الذي كان يستقر بالسيوف التي تحصد النفوس صرنا امام منبر يعليه ويمنحه استقراره شموخ الضمير، وبذلك : اليراع الذي صار سيفا،والضمير الذي يسمو شامخا تكتسب بقايا الروح الاصيلة قدرة النهوض فتخرج من دائرة الهدم الى البناء ... فتبني اول ما تبنيه وتعمر(عزائم الجيل)،ولنلاحظ ان البدء بإعمار عزائم الجيل يعيدنا الى يقظة الوعي في السياسي الشاعر .. إذ لا يتصاعد العمل الثوري دون بناء العزائم وتجاوز خرائب الهزائم واكاذيب الخراب ودجاها ولذا يصبح الدخول الى مفارقة البيتين اللذين ينتهي بهما هذا المقطع غاية في السلاسة والانسجام، لنرى كيف تسند المفارقة اختها .....

واذا دجا ليل القنوط وأوشكت باليأس

اجفان المنى تتخـدر

ألقى بوقدة روحه فإذا الدجى

مهج على اللهب المخاطر تجمر

فقد تكامل الحد التحدي الذي عبّرت عنه صورة بقايا الروح المهدمة وهي تبني وتعمر العزائم مع فعل التنوير المحرق الذي تمارسه وقدة الروح فتهزم الدجى .. ويُهزم الخدر واليأس بضجة المخاطر ولهيب المخاطر، تكامل الدعوة للثورة مع رسم صورة العصر الذي يحتمها كما رأيناه في قسمي المقطع الذي نحن بصدده .. وهذا بدوره تكامل مع الرؤية السياسية التي ادانت مجتمع الاستغلال المستبد المدجج بالزيف،وكل ذلك يتكامل مع صورة بغداد بعد استجابتها لداعي الثورة،وهي الصورة التي يرسمها المقطع الاخير من القصيدة وهي صورة تقوم على تفاعل بين مسؤوليتي الثائر وتضحياته ومسؤولية بغداد ووفائها للمبادئين لها ولغدها ! وهو تفاعل تنسجه متضادات أخر على تفاوت في شدة التضاد،فاذا يأزف موعد بغداد بالخلود فمع انتظار قلوب فاديها والمخلصين لها :

من كل من أعطاك غض شبابه ومضى

بذابل عمره يتعثر

وانهم لقادرون على إنجـاز ذلك الموعد لأصالة فيهم ولنقاء في أرواحهم :

يبس الزمان وهم على أطرافه

عذب – بما تعدينه – مخضوضر

ولأن لبغداد سابقة الوفاء لمن اخلص لها وأسهم بمجدها كما كان شأنها والكندي إذ :

بالامس وفيت(ابن كندة) حقه

وعلى سمائك للقطيعة عشير

فلابد من وفاء لمن حملها في القلب وجاهد من اجل فجرها الجديد وأنذاك ستزهو بسهر الوفاء واعياده :

وغدا سيلقاك (الرضى) ويومه

ألق بأعياد العروبة مسفر

وبذاك يقودنا الشاعر عبر ثقته بذاك الغد الى ان نردد معه في تلويحة الختام بتلك الثقة المتفائلة :

وبـأن يـومـك وهـو عـيـد مـروءة

سيعيش عن غدر الهوى ويكفر

×××××××

في قراءتنا لقصيدة "بغداد في عيد الادب" هذه، رأينا عديدا من مفارقات التضاد وهي تنشيء الموقف وترسم الصور المكونة له .. ولعل تتابعها في اللفظ والمعنى يشير من طرف ما الى ثقة الشاعر بهذا الاسلوب من اساليب حشد أو صوغ المعاني أو حتى لاتخاذه وسيلة للتعبير عن التحدي سلوك.

ونزعم ان روح الشاعر المتحدية ونزوعه المتوثب وراء اختياره هذا الاسلوب،ولدينا ما يعزز زعمنا أو يرجحه في واحدة من اخريات قصائده إذ اجتمع فيها البوح عن الذات مفارقا والتعبير عنه مفارقا.

فإذا كنا في العادة نقاوم الحزن بالتشاغل عنه أو تناسيه في احسن حال، فإن الشاعر يبوح امامنا انه يستعيّن على الحزن باستدعاء احزان سبقتها بل وينميها معا لمواجهة فجائع غيبها ! وبدلا من ان يقود تراكم الاحزان الى الإحباط او الاستسلام،يتخذ شاعرنا ذلك التراكم درعا يواجه فجائع اخرى "لا خائفا منها ولا متصدعا" .. وذلك طبع متحد يفسر شيئا من ثبات الشاعر في مقاومته للطغيان .. ولكننا إذا تأملنا في التعبير أو الصوغ الشعري عن ذلك، نجده يقوم على مفارقة التضاد على أقصاه !.....

دعني وأحزاني أربّ قطيعها

برفيف وجد في الجوانح أينعا

وأغذها بلهيف رزء لم يزل

من كل ارزائي أحر وأوجعا

حتى إذا أسمنتهن على طوى

ورأيت نشأ الحزن كيف ترعرعا

أسكنتهن سرائري وكسوتهن

خواطري ومنحتهن المدمعا

ورجوت ان ألقى بهن فجائعي

لا خائفا منها ولا متصدعا(١)

أرأيت كيف يربّي عبء ثقيل كالاحزان بمشاعر برقة الوجد اليانع ؟ أم تراك وقفت عند ترعرع نشأ الحزن الذي سمن على طوى !! أيا كان ما رأيت،فان مصطفى جمال الدين يبحث عن المفارقة حتى وهو يتكلم خطيبا،إذ يعمّق مكانة صديقه الذي يرثيه بأن يستحضر ما لم يعرف عنه كي يضيف لمزاياه المعروفة التي اشتهر بها ميزة اكبر،فاذا كان عبد الزهراء الحسيني صديق الشاعر الحميم قد عرف بصلابة إيمانه وصلابة عقيدته وبرفيع خلقه،فإنه يتجاوز ما عرف به فيمسك بما يعرفه هو عنه ليصفه بأنه" كان جنديا مجهولا من جنود الدفاع عن تراثنا الخالد وقيم امتنا العربية وحضارتها "ويعني بذلك جهده في الدفاع عن نهج البلاغة ورد الشبهة عنه واثبات نسبته لصاحبه علي بن أبي طالب !(٢).

أما حيّن يرثيه شعرا فتتجاوز المتآلفات والمتضادات في بناء قصيدة تستوعب عالم المرثى وفقهه وأخلاقياته ومنجزه وأول علائم استيعابها عنوانها "الفقيدان".. وفي بيت الاستهلال نعرف ان الفقيدين المعنيين هما العراق ونبل السيد الراحل،ويتعزز الفقد حد الثكل لكنه ليس سوى افتقاد الفرات والاخلاق ؛ والفرات والاخلاق مما يتوافق عطاء وعذوبة،ولكن المتفارقات تكمل ملامح صورة الثكل والفقد .. الشبع والجـوع .. والتزكية والاختـلاس .. والكرامة والسرقة :

شبعنا من الضياع وجعنا

من فتات لنا عليها إستباق

وكرامتنا نكاد نزكيهـا

اختلاسا كأننا سراق

من ذلك نجد ان المفارقة وبالذات مفارقة التضاد مما استطابه الشاعر اسلوبا لبناء قصيدته والتعبير خلالها عن :

١- احتـدام في المشاعر التي ترتبط بالعناصر المتضادة.

٢- حشد عناصر الصراع وتفجير المعنى من خلالها.

٣- وعي الموضوعة التي ألهمت الشاعر قصيدته والقـدرة على تجسيد محصلة الوعي شعرا.

٤- حشد القصيدة بحركية تشد المتلقي على وتر العلاقات المتضادة وتداخلها.

وبذلك قدم نموذجا لما رآه (ميوميك) في قصيدة المفارقة حين "تُغنّى وتُكوّن" ؛ ولعل اهم ما في تلك الحركية وما رأيناه وعيا للتناقضات، انها ستوفر للقصيدة ايقاعات مختلفة لا صوتية فقط وانما ايقاعات تداعي المعاني مما يشد المتلقي إليها ويشحذ يقظته في استقبال التكوينات المتضادة،مفردات ومعاني حتى لكأنه يشهد عملية صعود وهبوط أو عملية كتابة ومح و.

ويعزز ما ذهبنا اليه توا" النتيجة التي انتهى اليها د . خالد سليمان في دراسته لتجربة الشاعر محمود درويش في بناء قصيدة المفارقة، إذ يقول ان توظيفه للمفارقة قد نجح "في كشف جوانب مهمة في وعي درويش" وان المفارقة في قصائده "تقوم بكشف التضاد والتناقض بين ما هو حقيقة وبين ما هو مظهر في رحلة عذاب طويلة "(٣)،بل انه رأها في منجز درويش الشعري ليست مجرد وسيلة بلاغية أو جمالية "وإنما هي الى جانب ذلك وسيلة فلسفية تفضح لتكشف وتضيء، وتهدم لتبني،وتضحك لتبكي،وتهمس لتصرخ، وتتشكك لتتأكد وتؤكد" (٤).

وهو ما رأيناه في قصيدة "بغداد في عيد الادب" بشكل خاص اذ حفلت بكل تلك الفعاليات المتضادة وصولا لفكرة جديدة مضمونها قراءة تاريخ بغداد قراءة جديدة ودعوتها للانتصار لقيم بديلة.

ونضيف لكل ذلك سببا يتعلق بشخص السيد الشاعر مصطفى جمال الدين وهو تعدد مواهبه فان بنية المفارقة مهاد مناسب لاستيعاب تعدد الرؤى والصور المرتبطة بتعدد المواهب واحتشاد صاحبها بها .. وليس صدفة ان الشعراء الذين اعتمدوا المفارقة كانوا ممن تعددت مواهبهم كمحمود درويش الشاعر المقّالي ، ومعين بسيسو الشاعر المقّالي المقاتل والصحفي .. ولعل غلبة هذه البُنية على واحدة من قصائد الشاعر بالغة الاهمية يؤكد إنسجام هذه البُنية مع شدة الاحتشاد بالمعاني والافكار وقوة الصراع .

وتبقى هذه المحاولة مفتوحة على الاستفادة من نتائج دراسة مصطفى جمال الدين في مواهبه ومنجزاته الفكرية والسياسية لتفسر ما اغفلناه من دوافع توظيفه لهذه البُنية على مستوى قصيدة بأكملها بما يكاد يكون بيتا .. بيتا .

ناحية المشروع ٣-٦/١٢/٢٠٠٣

(١ ، ٢) : كلمة د . مصطفى جمال الدين في رثاء صديقه الفقيه الباحث السيد عبد الزهـراء الحسيني ، مجلة "الموسم" – العدد ٢٠/١٩٩٤ ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٣ و ٤) :د. خالد سليمان المفارقة والادب (دراسة.. النظرية والتطبيق) دار الشروق –عمان – ١٩٩٩ .....

× الراحل مصطفى جمال الدين من أكبر شعراء القصيدة العمودية في العراق، ومن المجددين فيها، غير ان موقفه المعارض لنظام الرئيس السابق صدام حسين جعل اعماله ممنوعة وذكره كذلك داخل البلاد، ومن هنا جاء المؤتمر الأدبي الاستذكاري الذي أقامته جامعة الكوفة مركز دراسات الكوفة بتاريخ١٥/١٢/٢٠٠٣.

مركز دراسات الكوفة بادر إلى نشر وقائع المؤتمر في كتاب ضم الكلمات والقصائد التي ألقيت فيه، فضلا عن البحوث والدراسات وهي: "النجف في ذاكرة السيد مصطفى جمال الدين" للدكتور حسن الحكيم، و"قراءة لغوية في شعر مصطفى جمال الدين" للدكتور نعمة رحيم العزاوي، و"الإبداع العلمي في أطروحتي السيد مصطفى جمال الدين" و "مصطفى جمال الدين أصوليا" للدكتور صاحب حسين نصار، و"الجديد في الدرس النحوي عند مصطفى جمال الدين" للدكتور عبد الكاظم الياسري، و"صياغة الصورة الحسية ودلالاتها في قصيدة بغداد" للدكتور صباح عباس عنوز، و"تأملات في توظيف المفارقة عند مصطفى جمال الدين"لقاسم عبد الأمير عجام، و"مصطفى جمال الدين عروضيا" لعبد المنعم القريشي ، و"المكان في شعر مصطفى جمال الدين"لباقر الكرباسي

مجلة الاقلام 2004

مصطفى جمال الدين .. الانتماء للإنسانية

عماد كامل

يعد الأدب عامل مهم في صناعة الحضارة الإنسانية،لأنه يسهم في الارتقاء بالواقع الثقافي من خلال عكس التجربة الشعورية للمجتمع. لذا فقد أسهم الأدب بشكل عام والشعر منه خصوصا بشكل فاعل في مواجهة التحديات التي تواجه المجتمع،عبر ممارسة عملية الكشف والتعرية للسلوكيات المنحرفة.

ومن الشخصيات الأدبية التي سخرت شعرها لخدمة المبدأ الذي كان يؤمن به وهو(الإنسان أعلى قيمة في الوجود) الشاعر مصطفى جمال الدين،ولعل مثل هذا المبدأ الذي عكسه الشاعر في شعره من المبادئ التي يصعب تحقيقها في العراق بل وفي اغلب الدول العربية لأنها لا تزال تعيش تحت وطأة أنظمة حكم تمارس القمع،وتغيب فيها حق المواطنة وحقوق الإنسان، وفي خضم الأزمة الحادة بين الشعب العراقي والسلطة تشكل وعي جمال الدين، وأصبح التغيير هاجسه ومصدر قلقه الدائم، فصاغه شعرا يعكس من خلاله مأساة شعبه.

اذ يمكننا ان نلاحظ التمرد والسخط على الواقع والنقمة على الحكام في قصائده المتنوعة التي نظمها في أكثر من مناسبة،فهو يرى ان الحرية كأشعة الشمس يجب أن تمنح لكل وطن ومواطن، في حين نرى كثير من الشعراء الذين عاصروا مصطفى جمال الدين سخروا شعرهم لخدمة النظام فمجدوا شخصه ومواقفه القمعية.

رؤية جمال الدين لأزمة المواطنة في العراق:

الأزمة هي تعبير عن عدم التكيف مع وضع غير عادي يرتسم على مرايا النفس فيحدث نوعاً من الاغتراب والإحساس بالضياع(١)وكذلك هي عملية فصل وقطع عن حالة مألوفة،وهذا الفصل يصاحبه قلقا واضطرابا على المستوى النفسي والاجتماعي،إلا إن الأزمات في الوقت ذاته تفعل وتنشط العقل لكونه يبحث عن مخرج لتلك الأزمة التي يمر بها الفرد أو المجتمع.

ويمكننا القول إن المجتمع العراقي هو مجتمع متراكم الأزمات لذا فأنه يعجز عن خلق حلول مناسبة،وتراكم الأزمات إلى حد الاستعصاء دلالة على التردي، ولكي تكون للأزمة نهاية فلابد أن يقوم بين الواقع والفكر جدل التحدي والاستجابة،فالفكر الذي يرفض أن يكون انعكاسا للواقع،يمتلك القدرة على التخطي وطرح البديل باعتماده على بذور التغيير الكامنة فيه،من هنا يضطلع المثقف بدور لا يقل أهمية عن السياسي في مواجهة الأزمة مع إن لكل منهم خصوصيته وأدوات اشتغاله إلا أنهما يتفقان في غاية واحدة وهي تجاوز الواقع وتغييره.

وغياب (المواطنة) واحدة من الأزمات التي مر بها المجتمع العراقي ولا يزال يكتوي بنارها وهي والتي أدت بدورها إلى تقليص الحريات الفردية والجماعية،وهذا الموضوع شغل مساحة كبيرة من شعر مصطفى جمال الدين لأنه كان يرى إن الحرية هي المناخ الصحي الذي تنمو فيه الأفكار.

لذا يقول في قصيدته (بغداد): بغداد أن لك الأوان لترجعي ما ابتز منك الحاكمون وزوروا فوراء مجد يرفعون ضمائر تعنى بصدق حديثه وتفسر فتنقذي(ذهبا) يؤطر عصرك الزاهي بما يعشي العيون ويبهر هل كان إلا من(حديد) همه حصد النفوس ليستقر(المنبر) إلى أن يقول:

قليلة من الناس، احتكرت لنفسها حق السيادة على الشعب، فجعلت من المواطن أداة استغلال يعيشون كالسائمة، دون أن يكون لهم حق في أن يحسُّوا أو يفكروا في هذه المواطنة القائمة على الاحتكار، فخلقت لها امتيازات وحقوقاً أبدية على الأموال والرقاب معاً، فأخضعت القوانين لمشيئتها، وحالت بين المواطن وبين التطلع لحياة أفضل.

من هنا فأن العلاقة بين الفرد والدولة حتما ستكون علاقة سيئة،اذ يسودها القهر والتسلط،ويتولد لدى المواطن شعور بالغربة،وغياب الحس الوطني،مما يولد ظهور التمرد كرد فعل على الواقع المأساوي،لان التمرد الاجتماعي لا يختلف عن التمرد السياسي من حيث هدفه الواضح ومنطقه الواعي.وهذا الواقع استطاع أن يؤثر على المنظومة الثقافية للمجتمع العراقي جاعلا منها منظومة ثقافية شاملة،استطاع النظام من خلالها أن يكرس مفهوم الطائفية والعشائرية،لذا فأن جمال الدين كان ينظر إلى الثقافة على إنها أداة للنهوض والمواجهة، إنتاج وإبداع،وليس استهلاك وتكرار، كان يرى إن الثقافة هي السلطة،وليست الثقافة أداة بيد السلطة.

ومن محاولاته الفذة التي استطاع من خلالها نشر الثقافة المنفتحة على الآخر، المبنية على التجديد إسهامه الفاعل في المطالبة بتجديد المناهج الحوزوية والتطور في إدارة شؤونها بما تقتضيه ظروف العصر،فيقول عن إحساسه بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقه كشاعر منافح عن هذه المدرسة التي ينتمي إليها(كنت أحس بعمق الاهتزاز الذي تتبطنه مقررات هذه الجامعة الدينية،وجمودها،وعدم أخذها بأسباب التطور المطلوب، لذلك كان شغلي الشاغل كشاعر يستطيع أن يوصل فكرة للناس بأقرب وسيلة،وأكثرها إثارة لحماس الذين يشعرون مثلي بهذا النقص والجمود،أو هم على استعداد للشعور به،لذلك حشدت كل طاقتي وأنا أشارك بكثير من حفلاتها العامة،أن أثير هذا الموضوع،وبخاصة في الحفلات التي تعقد لتكريم احد مراجع الدين أو تأبينه)(٥)

الوطن في مفهوم جمال الدين

مذ وجد الإنسان أصبح يعبر عن وجوده تعبيرا اجتماعيا،إذ قدم من خلال ولوجه في دائرة المجتمع بعض من رغباته الفردية من اجل المال بين يديه،يطرب أغيد ببليغ رنته،ويرقص احور فإذا تطلع (للسواد) بريقه بح الرنين به،وغاض العصفر(٢)

وقد اختلف المفكرون في سبب غياب المواطنة فمنهم من ربط ظهور هذه الأزمة بتصدّع البنى الاجتماعية والانهيار الاقتصادي(٣)وآخرين يعزونها (إلى القيادة السياسية التي تصدرت المجتمع قبل الاستقلال وبعده(٤)والواقع المزري للمواطنة في المجتمع العراقي كرس الظلم والاضطهاد لأنها كانت وقفاً على فئة الجماعة التي ينتسب إليها.وقد تعددت ظاهرة الانتماء ضمن المجتمع الواحد وتأطرت بأطر مختلفة منها العشيرة والقبيلة،وتولدت نتيجة لهذا الانتماء روابط اجتماعية ورثها السلف عن الخلف وفق الحيز المكاني والزماني الخاص بكل مجتمع.

ويشترك المنتمين ضمن الدائرة الواحدة وان كان خارج دائرة الوطن الواحد بعوامل عدة منها اللغة والدين،أما الانتماء إلى الوطن فيعني الشعور الذاتي الذي يشعر من خلاله المواطن انه جزء من وطنه الذي يعيش فيه،ويعزز انتماء المواطن بقيمة انتماءه لوطنه كلما أصبح المستقبل أمامه أكثر استشراقا لذا يرى بعضهم إن الانتماء كي يكون إنسانيا لابد من إدراك الماضي والحاضر واستشراف المستقبل ليكون من خلاله وعيه التاريخي.(٦). وكلما ارتفع مستوى الوعي لدى الفرد في المجتمع تمكن من خلاله التعبير عن أصالته وذلك عبر هضم موروثه الثقافي والسعي إلى تطويره وفق الوسائل الحديثة ليتمكن من الإسهام مع المجتمعات الأخرى في توسيع أفاق التقدم الحضاري.

ويتسم الانتماء للوطن بسمة الولاء التي تعني الترجمة العملية للشعور وكذلك تنازلهم عن أية خصوصيات وطنه،إذ يكون الفرد على درجة عالية من الإخلاص والتفاني تجاه وطنه في مجال تخصصه الذي يعمل فيه،وفي هذا المجال يقول مصفى جمال الدين في قصيدة كتبها لأحد أصدقائه وهو المدعو أبا علي الذي اضطرته الظروف السياسية الى العمل مدرسا في السعودية

أبا علي وكثير على
مثلك أن يهجر ريع الشباب
ان يسلم الزرع إلى حاطب
ويترك الضرع لسوء احتلاب
بغداد بغدادك لا للاؤلى
(مرو على (الدهنا) خفاف العباب)
ثم أفاق (الكوخ) من حولهم
يسأل عن سكان هذي(الهضاب)
بغداد أبناؤك في (غربة)
وأنت للعافين دار اغتراب

وبهذا فأن جمال الدين يجسد انتمائه الإنساني على الصعيد الثقافي معبرا يستطيع أن يوصل فكرة للناس بأقرب وسيلة،وأكثرها إثارة لحماس الذين يشعرون مثلي بهذا النقص والجمود،أو هم على استعداد للشعور به،لذلك حشدت كل طاقتي وأنا أشارك بكثير من حفلاتها العامة،أن أثير هذا الموضوع،وبخاصة في الحفلات التي تعقد لتكريم احد مراجع الدين أو تأبينه)(٥)

الوطن في مفهوم جمال الدين

مذ وجد الإنسان أصبح يعبر عن وجوده تعبيرا اجتماعيا،إذ قدم من خلال ولوجه في دائرة المجتمع بعض من رغباته الفردية من اجل

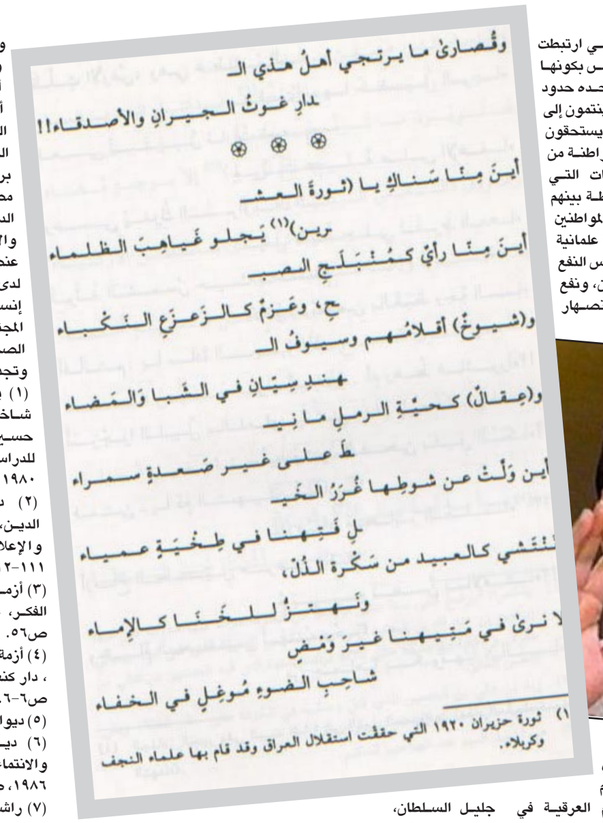

الجماعة التي ينتسب إليها.وقد تعددت ظاهرة الانتماء ضمن المجتمع الواحد وتأطرت بأطر مختلفة منها العشيرة والقبيلة،وتولدت نتيجة لهذا الانتماء روابط اجتماعية ورثها السلف عن الخلف وفق الحيز المكاني والزماني الخاص بكل مجتمع.

ويشترك المنتمين ضمن الدائرة الواحدة وان كان خارج دائرة الوطن الواحد بعوامل عدة منها اللغة والدين،أما الانتماء إلى الوطن فيعني الشعور الذاتي الذي يشعر من خلاله المواطن انه جزء من وطنه الذي يعيش فيه،ويعزز انتماء المواطن بقيمة انتماءه لوطنه كلما أصبح المستقبل أمامه أكثر استشراقا لذا يرى بعضهم إن الانتماء كي يكون إنسانيا لابد من إدراك الماضي والحاضر واستشراف المستقبل ليكون من خلاله وعيه التاريخي.(٦). وكلما ارتفع مستوى الوعي لدى الفرد في المجتمع تمكن من خلاله التعبير عن أصالته وذلك عبر هضم موروثه الثقافي والسعي إلى تطويره وفق الوسائل الحديثة ليتمكن من الإسهام مع المجتمعات الأخرى في توسيع أفاق التقدم الحضاري.

ويتسم الانتماء للوطن بسمة الولاء التي تعني الترجمة العملية للشعور وكذلك تنازلهم عن أية خصوصيات تتعارض مع هذا الإطار، كما أن هذه الرابطة تهن وتقوى بمقدار ما يتحقق من نفع لشركاء التراب الواحد)(٧)ومصطفى جمال الدين وفق هذا المنظور انتقد النظام الحاكم في العراق،لأنه لم يجسد حقوق المواطنة في العراق وبالتالي فهو لا يحضى بالشرعية لأنه غير مؤهل لترسيخ روح المواطنة بين أبناء المجتمع الواحد.

والمواطنة في جوهرها سلوكا حضاريا يهدف إلى تحرير الإنسان من كافة أشكال العنف والإقصاء في إطار دولة مبنية على أساس المؤسسات المدنية،ويجدر الإشارة إلى إن مفهوم المواطنة شاع تداوله كمفهوم سياسي واجتماعي بعد الثورة الفرنسية إذ (شهد العالم أول وثيقة عرفت باسم إعلان حقوق الإنسان عام ١٧٨٦، كما أقرت فرنسا أول دستور عام ١٧٩١، وكانت كليات الحقوق في الجامعات الفرنسية هي الرائد الأول في هذا المجال)(٨)

وبين لفظتي الوطن والمواطنة تقارب شديد عرف عند اللغويون القدامى،فقد صور الجاحظ العاطفة الفطرية للإبل وحنينها إلى أوطانها بقوله(إني فاوضت بعض من انتقل من الملوك في ذكر الديار والنزوع إلى الوطن، فسمعته يذكر أنه إذا اغترب من بلد إلى آخر، أمهد عن وطنه وأعمر من مكانه، وأخصب من جنانه، ولم يزل عظيم الشأن، جليل السلطان، فكان إذا ذكر التربة والوطن حن إليه حنين الإبل إلى إعطانها)(٩)

ولعل تجربة الغربة والابتعاد عن الوطن لدى مصطفى جمال الدين وهجرته عن وطنه لم تزده إلا تشبثا بالأرض والأهل والأصدقاء، فمن خلال إقامته في سوريا ظلت صورة الأهل عالقة بالذاكرة، رغم أنه جرد

ويعد مفهوم المواطنة جزءاً من مشكلة الهوية والمفاهيم التي ارتبطت بها، إذ عرفها البعض بكونها (انتماء إلى تراب تحده حدود جغرافية، فكل من ينتمون إلى ذلك التراب مواطنون يستحقون ما يترتب على المواطنة من الحقوق والواجبات التي تنظم بينهم.

من حقوق المواطنة في بلده الذي ينتمي إليه، وبذلك اثبت جمال الدين أصالة انتماءه لوطنه،مبرهنا على صدق وطنيته الخالصة التي عكسها في شعره على الرغم من شقة البعد بينه وبين وطنه إذ يقول في قصيدته لرمادها ورماد الوطن:

يا أنت يا وطن حملت ربوعه
في غربتي، وجمعته بشتاتي
عيناك منبع رافديه، وملتقى
فرعيك خضر مروجه النضرات
وإذا نطقت سمعت عذب لحونه
بخرير ساقية،وعزف رعاة

إلى أن يقول

أم أنت يا وطنا تركت ربوعه
نهبا لنار وغى ونار ترات
أزمعت ألا تعكسيه بخاطري
إلا كما هو :كالح القسمات
وطني رماد جنائن محروقة
وأنا وأنت،هنا،رماد حياة(١٠)

يتضح مما سبق إن أزمة المواطنة أحدثت خللا عميقا في البنى النفسية والخلقية للفرد،وهي في الوقت ذاته متعددة الوجوه والأبعاد،إذ تجسد الوجه الآخر لبؤس الواقع العراقي الذي ما يزال يعاني أزمة على المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والتي مردها إلى أزمة الفكر السياسي الذي أحدثته تراكمات التخلف الحضاري عبر المراحل التاريخية الماضية.وقد برز الدور الريادي للشاعر مصطفى جمال الدين في الدفاع عن انتمائه الوطني والإنساني،متصديا لكل ما هو عنصري سواء عند الحكام أم لدى الأفراد في المجتمع،ليتجسد إنسانية الإنسان في إطار المجتمع والدولة، إذ إن المواطنة الصحيحة تعمق الانتماء للوطن وتجذره.

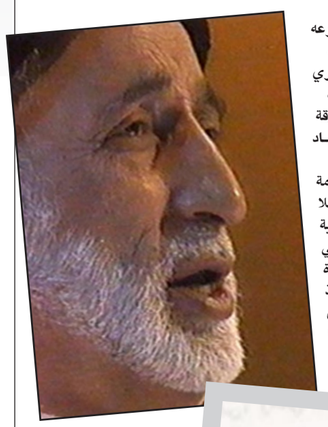

(١) ينظر:الاغتراب، ريتشارد شاخت: ترجمة كامل محمد حسين. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠.

(٢) ديوان مصطفى جمال الدين، وزارة الثقافة والإعلام،العراق،بغداد، ١٩٧٢، ١١١-١١٢

(٣) أزمة العقل: فؤاد زكريا، مجلة الفكر، عدد آذار ١٩٧٠ بيروت، ص٥٦.

(٤) أزمة العقل العربي: حامد خليل: ، دار كنعان، دمشق، ط١، ١٩٩٢، ص٦-٦.

(٥) ديوان مصطفى جمال الدين٣١

(٦) ديب أبو لطيف: الوعي والانتماء، مطبعة الصباح، دمشق ١٩٨٦، ص٣٥.

(٧) راشد بن الغنوشي: حقوق المواطنة، المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط٢، ١٩٩٣، ص١٠ وما بعدها.

(٨) جورج جبور: العروبة ومظاهر الانتماء الأخرى، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٦، ص ١٤ وما بعدها.

(٩) عمرو بن بحر الجاحظ: رسالة الحنين إلى الأوطان، صححها وعلق عليها الشيخ طاهر الجزائري، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢، ص٤

(١٠) ديوان مصفى جمال الدين ٢٠٨

مصطفى جمال الدين.. عالماً وأديباً وشاعراً

مع الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري

د. أليس كوراني

كانت سماء العراق على موعد مع نجم ستسطع أنواره في لياليه المظلمة... وكانت الأرض تتهيّأ لاستقبال مولود سيصدح صوته في أرجائها ويشقّ طريقه في أقطارها بثبات ونجاح، ويتتبّع أفياء ظلال العلم والأدب حتى يغدو الشّعر ملاكه، والأدب قرينه ورفيق دربه، في قافلة حياته المنطلقة من ربوع الوطن والمتّجهة شرقاً وغرباً...

في ناحية كرمة بني سعيد، التي تعرف أيضاً بقرية "المؤمنين" في منطقة سوق الشّيوخ التّابعة لمحافظة النّاصريّة جنوب العراق، كان ذلك الموعد بتاريخ الخامس عشر من تشرين الثاني عام ١٩٢٧م، وهو تاريخ ميلاد السّيد مصطفى جمال الدّين الذي سيملأ دنيا العرب بقصائد خلّدت ذكراه، وما زال صدى صوته يتردّد بين القلوب والحنايا.

بطاقة شخصية

في شجرة عائلته، هو مصطفى بن جعفر بن عناية الله بن عبد النّبيّ بن محّمد بن حسن بن عبد الله بن حسين بن عزّ الدين بن عبد الله بن علاء بن أحمد بن ناصر بن جمال بن حسين بن تاج بن سليمان بن غياث بن إبراهيم بن يونس بن حيدر بن إسماعيل بن أحمد بن حسين بن موسى المبرقع بن الإمام محمّد الجواد عليه السّلام. وتنتمي أسرته في العراق إلى عشيرة "آل حسن"، أمّا جمال الدّين، فهو لقب اكتسبته العائلة من جدّهم الأعلى السيد محمّد الذي كان يلقّب بـ جمال الدّين لتبحّره بالعلوم الدّينية. وتعدّ عائلة جمال الدّين من العائلات العلميّة الدينيّة المعروفة في العراق لكثرة علمائها وأدبائها.

تدرّجه العلميّ وحياته الأدبيّة

عندما كان طفلاً، التحق السيّد مصطفى جمال الدّين بكتاتيب قريته، ثمّ انتقل إلى مدرسة محلّته حتى الصّف الرّابع الابتدائيّ. وفي عام ١٩٣٨م انتقل مع أسرته إلى النّجف الأشرف فالتحق بالجامع الهنديّ حيث التقى بالعلماء والأدباء. لكنّ عائلته اضطرت إلى العودة إلى قريتها إثر وعكة صحيّة ألمّت بجدّه، واستقرّ الرّأي على بقاء السيّد مصطفى في النّجف، وبقاء والدته لرعايته والاهتمام به، وقد ذكرها عالمنا عندما افتتح كتابه الموسوم "البحث النّحويّ عند الأصوليّين"، فكتب في الإهداء: اللّهُمَّ وَكما كانَتْ عَيناها أَنيسَ طُفولَتي، وَسِراجَ ظُلْمَتي، فَاجْعَلْ ثَوابَ ما بَذَلَتْهُ مِنْ جَهْدٍ أَنيسَ وَحْشَتِها وَسِراجَ قَبْرِها.

وعلى خطّين متوازيين، سارت دراسة السيّد في الحوزات العلميّة في النّجف، فكان الفقه والعلوم الدّينيّة إلى جانب المنطق والنّحو والبلاغة والصّرف، حتّى بزّ أقرانه وبان ذكاؤه ونبوغه باكراً.

وقد تتلمذ على عدد من العلماء في تلك الفترة، وعنهم يقول: «كنت أدرس عند الشّيخ علي زين الدّين شرح الألفيّة وقسماً من المختصر للتفتزانيّ، ودرست حاشية ملّا عبد الله في المنطق عند الشّيخ محمد رضا العامريّ، والشّرائع عند الشّيخ عبد الكريم شمس الدّين، والمعالم واللّمعة الدّمشقيّة عند المرحوم الشّيخ محمد عليّ الصّندوق. ولكنّي تمحضتُ في أكثر دروسي بعد ذلك على يد الشّيخ محمد أمين زين الدّين فأخذت عنه "الكفاية" و"الرّسائل" وقسماً من "المكاسب" و"شرح منظومة السّبزواريّ" في الفلسفة الإسلاميّة. وقد تنقّلت في حياتي الدّراسيّة على أساتذة كثيرين، ولكنّي لم أجد من هو أجلى بياناً وأكثر إيصالاً من الشّيخ محمد أمين زين الدّين». ودرس قطر النّدى وبل الصّدى- وهو كتاب نحويّ- وقسم من الألفيّة على يد ابن عمّه السّيّد محسن جمال الدّين. وبعدما أكمل مرحلة السّطوح، انتقل إلى مرحلة البحث الخارج عند آية الله المرجع السّيد أبي القاسم الخوئيّ لأكثر من ستّ سنوات، وكتب تقريرات أستاذه في الفقه والأصول.

للسيّد مصطفى جمال الدين جملة تختصر تكوين نشأته الأدبية، فيقول: «فإذا كنت مديناً فيها -أي حياته الأدبيّة- لأحد فلهذين الشّيخين الجليلين: محمد أمين زين الدّين.... وسلمان الخاقاني، فهما اللّذان وضعا اللّبنة الاولى في أساس ظللتُ أبني عليه...»

في مدرسة الخليليّ تسنّى له معاشرة من هم أكبر منه سنّاً وأكثر علماً وثقافة، فأفاد منهم، وشغل نفسه أيّام العطلة بقراءة الصّحف والمجلّات والكتب الأدبيّة، حتى نضجت قريحته الأدبيّة والشّعريّة، وكان ينظّم الأبيات الشّعرية منذ كان فتى يافعاً، وأخذت ميوله الأدبيّة تظهر، حتّى جمع حوله مجموعة من العلماء الأدباء، أطلق عليها الشّاعر جميل حيدر اسم "أسرة الأدب اليقظ" ومن هؤلاء العلماء: الشّيخ جميل حيدر، والسّيّد محمّد حسين فضل الله والشّيخ محمد الهجريّ. وقد نادت هذه المجموعة بتطوير المناهج الحوزويّة، الذي دعا إليه الشّيخ محمّد رضا المظفر، وساندته في ذلك. فعن ضرورة تطوير الحوزة الدّينيّة قال السيّد مصطفى جمال الدّين: «فإنّي كنت أحسّ بعمق الاهتزاز الذي تستبطنه مقرّرات هذه الجامعة الدّينية وجمودها، وعدم أخذها بأسباب التّطوّر المطلوب، لذلك كان شغلي الشّاغل، كشاعر يستطيع أن يوصل فكره للنّاس بأقرب وسيلة، وأكثرها إثارة لحماس الذين يشعرون مثلي بهذا النّقص والجمود، أو الذين هم على استعداد للشّعور به، لذلك حشدت كلّ طاقتي وأنا أشارك بكثير من حفلاتها العامة، أن أثير هذا الموضوع وبخاصّة في الحفلات التي تعقد لتكريم أحد مراجع الدّين أو تأبينه».

فعلى سبيل المثال، أشار السيّد مصطفى جمال الدين إلى ضرورة تطوير الدّراسة الدّينيّة في النّجف، وذلك في قصيدة ألقاها أوائل الخمسينات في حفل تأبين المرجع الشّيخ محمد رضا آل ياسين (١٣٧٠هـ)، وأشاد بتطوّر الدّراسة في الجامعة الأزهريّة؛ وقد نُشرت القصيدة في مجلة البيان النّجفيّة لصاحبها عليّ الخاقانيّ، ومجلّة الألواح اللّبنانيّة لصاحبها صدر الدّين شرف الدّين، وممّا قاله في ذلك:

هَلّا تَكونونَ مِنْ مِصْرٍ وَأَزْهَرِها كَما
يَكونُ مِنَ السَّلْسالِ مَنْبَعُهُ
أَمْ لا: فَنَحْنُ أُناسٌ عُمْرُنا سَفَهٌ
إنْ لَمْ نَكُنْ بـ (أَتى زَيْدٌ)نُضَيِّعُهُ

وَقال في موضع آخر:

هَذي المَناهِجُ أَطْمارٌ مُهَلْهَلَةٌ
مَرَّتْ عَلى نَسْجِها الأَحْداثُ وَالعُصُرُ
وَسَوْفَ يَأْتي زَمانٌ لا تَرَوْنَ بِها ... إلّا
خُيوطاً لِهَمْسِ الرّيحِ تَنْتَشِرُ

على أنّ مثل هذا الكلام لم يلقَ صدى عند الكثير من العلماء المحافظين، فثارت ثائرتهم فهاجموا السّيّد وطعنوا فيه ولعنوه مستغلّين المقارنة بين النّجف والأزهر ذريعة للحملة على دعوته للتّجديد.

لكنّ تلك الحملات الشّعواء لم تفت من عضد السّيّد، وظلّ ينادي وأصحابه بالتّجديد، وقد أسفر تحرّكهم الواعي،عن تأسيس كليّة الفقه، وعيّن السيّد مصطفى جمال الدّين معيداً فيها عام ١٩٦٢م، لتبوّئه المركز الأوّل بين النّاجحين. وفي تلك الفترة كتب في الفقه والأصول، وألّف كتاباً وسمه بـ "الإيقاع في الشّعر العربيّ من البيت إلى التفعيلة".

وكان يتوجّه إلى الشّباب بقصائد عدّة يحثّهم على التّغيير والتّجديد، من ذلك قصيدة قال فيها:

يا قَوْمُ حَسْبُكُمُ الخُمولَ فَقَدْ مَضى زَمَنٌ
بفطْرَتها تَشُبُّ الرُّضَعُ
وَالعَصْرُ عَصْرٌ لا يَشُبُّ وَليدُهُ
إلّا ليعجبه المفنُّ المُبْدِعُ
عَصْرُ المَدارسِ عَذْبُها وَأُجاجُها
تَبْني العُقولَ بما يَضُرُّ وَيَنْفَعُ
لا عَصْرُ كُتّابٍ قُصارى جَهْده
صُحُفٌ مُبارَكَةٌ وَآيٌ مُمْتَعُ
صونوا مَناهِجَكُمْ تَصونوا دينَكُمْ
وَابْنوا العُقولَ يَقُمْ عَلَيْها مَجْمَعُ
فَالدّينُ لَيْسَ يَربه وَيَسوسُهُ
شَيْخٌ بِمحْرابِ الدُّجى يَتَضَرَّعُ.

ونظراً إلى أهميّة الدّراسة الأكاديميّة، فقد التحق السّيّد بجامعة بغداد، ونال في العام ١٩٦٩م شهادة الماجستير بدرجة جيّد جداً وعنوان رسالته: "القياس حقيقته وحجّيته" وأخرجها كتاباً عام ١٩٧٢. ثمّ عُين أستاذاً في كلية الآداب بجامعة بغداد، فذاع صيته وأصبح معروفاً على مستوى العراق والعالم العربي. وأراد السّيّد إكمال دراساته العليا، فسجّل اسمه في دار العلوم بالقاهرة للحصول على شهادة الدّكتوراه تحت إشراف الشّيخ أبو زهرة، لكنّ هذا الشّيخ المصريّ وافاه الأجل قبل أن يشرع السيّد بالبحث، ما دفعه إلى الالتحاق بجامعة بغداد مجدّداً فحاز عام ١٩٧٩م على شهادة الدّكتوراه من قسم اللّغة العربيّة بدرجة ممتاز، وكانت أطروحته بعنوان: "البحث النّحويّ عند الأصوليين".

ومع انشغاله بدراسة العلوم الدّينيّة واللّغويّة، فإنّه أطلّ على المجدّدين من الشّعراء وشارك في القضايا الشّعرية المعاصرة، فتعرّف إلى شعراء العراق المعاصرين، أمثال السّيّاب ونازك الملائكة والجواهريّ والبياتيّ. ومزج الغزل بالقضايا الوطنيّة والإنسانيّة في شعره، وفيه يقول الشّاعر العراقيّ فالح الحجيّة في كتابه (في الأدب والفن): "إنّ مصطفى جمال الدّين عملاق الشّعر النّجفيّ الحديث".

تألق العالم الشّاعر

أخذ السّيّد مصطفى جمال الدّين يشارك في المؤتمرات الأدبيّة التي عقدت في بغداد، فشارك في مهرجان مؤتمر الأدباء الكبير ببغداد عام ١٩٦٥م، ثمّ في المهرجان نفسه عامي ١٩٦٧ و١٩٦٧م، وفي هذا المهرجان الأخير، ألقى قصيدة حول نكسة حزيران فاجأت الحاضرين بقوة سبكها وجزالة ألفاظها، وإلقائه العذب، ومطلعها:

لَمْلِمْ جراحَكَ وَاعْصِفْ أَيُّهَا الثّارُ ما
بَعْدَ عارِ حَزِيرانَ لَنا عارُ

وعن تلك القصيدة وحضور السيّد قال الشّاعر العراقيّ أحمد الصّافي النّجفيّ للسيّد مصطفى: "أهمّ شيء أنا اعتزّ به، هو حضورك مؤتمر أدباء العرب، ووقوفك بعمامتك هذه لتخبرهم بأنّ الشّعر العربيّ والأدب العربيّ هو للعمائم أوّلاً". وما كان من الأديب والرّوائيّ المصريّ أنيس منصور إلاّ أن قال عبارته المعروفة والمشهورة: "لقد خدعنا بمظهره"، فأخذ بعد ذلك شعراء مصر وأدباؤها يكتبون عن السّيد مصطفى جمال الدّين في كتاباتهم أمثال الشّاعر صالح جودت والأديب والشّاعر والصحفيّ عبد الرّحمن الشّرقاويّ وغيرهما، ما جعل السّيد معروفاً في الوسط الأدبيّ المصريّ.

مغادرة الوطن

اضطرّ السّيّد مصطفى جمال الدّين إلى مغادرة وطنه الحبيب عام ١٩٨١م إلى الكويت، لقمع الحريّات في العراق وتشدّد النّظام الحاكم فيه. وبعد مدّة سافر إلى لندن، ثمّ عاد إلى الكويت مرة أخرى. فاعتقلته السّلطات الكويتيّة عام ١٩٨٤م، وكانت الحرب العراقيّة - الإيرانيّة على أشدّها، وأودعته في السّجن لتخوّفها من كلّ معاد للنّظام العراقيّ، أو متعاطف مع إيران، ثمّ قامت بإخراجه، وخيّرته بين الإقامة في قبرص أو سوريا فاختار الأخيرة.

وكان حنينه إلى وطنه يحرّك القوافي، فيقول بلغة شعريّة صادقة قصيدة يصف فيه الوطن، ومما جاء فيها:

وَيا وَطَناً لَوْ أَنَّ الخُلْدَ أَزْرى
بِرَوْنَقِه لَقُلْتُ لَهُ حَسودُ
أَديمُ ثَراكَ أَرْوَعُ ما نُفَدّي
وَنَبْعُ رَواكَ أَنْبَلُ ما نَرودُ
كَأَنَّ حَصاكَ مُمْتَقِعاً
قُلوبٌ يُقَلِّبُها عَلى ضَرَمٍ صُدودُ
وَطيبَ نَسيمكَ السّاجي
عتابٌ يَتَهَدْهَدُهُ عَلى أَمَلٍ وُعودُ
أُحُبِّكَ بَلْ أُحِبُّ خُشوعَ نَفْسي
ببابكَ حينَ أَحْلُمُ بِيَعودُ
وَأَعْشَقُ فيكَ آهَةَ كُلِّ قَلْبٍ
لَهُ بَيْنَ الثَّرى غَزَلٌ فَقيدُ

للاستماع إلى هذه القصيدة:
http://www.youtube.com/watch?v=Mev٦Nq feature=player__&LP٦x٤ embedded

وفاته

ألمّ بالسّيّد مصطفى جمال الدّين مرض عضال قضى على حياته، فتوفّي في دمشق يوم الأربعاء في الثّالث والعشرين من تشرين الاول من عام ١٩٩٦م، ودفن في مقبرة السّيّدة زينب عليها السّلام.

أهمّ كتبه

- الانتفاع بالعين المرهونة . بحث فقهيّ
- الاستحسان: حقيقته ومعناه.
- الإيقاع في الشّعر العربيّ من البيت إلى التّفعيلة.
- القياس: حقيقته وحجّيّته . رسالة ماجستير
- البحث النّحويّ عند الأصوليّين . رسالة دكتوراه
- ديوان شعر كبير.
- محنة الأهوار والصّمت العربيّ

وفي عام ١٩٩٧م أصدر ولده السيّد مهنّد مصطفى جمال الدين مؤلّفه: سيّد النّخيل المُقفّى، بمناسبة الذّكرى الأولى لرحيل والده السّيّد مصطفى جمال الدّين.

رحل السّيّد مصطفى جمال الدين تاركاً لنا ذخيرة علميّة وأدبيّة وشعريّة، ما تزال موضع دراسة الباحثين والمؤلفين من شتّى الأقطار العربيّة والإسلاميّة. وما زال نتاجه موضع اهتمام الأدباء والشّعراء.

راقيون من زمن التوهج
العدد (2417)
السنة التاسعة
الخميس (8)
اذار 2012

مصطفى جمال الدين والتجديد الشعري

صباح محسن كاظم

عالم باللغة، الفقه،مجاهد،عاشق العراق،مجدد في الشعر؛الاغتراب..والالم..والحنين تميز ماأبدعه الشاعر السيد مصطفى جمال الدين

في قرية تغفو على أطراف الاهوار(قرية المؤمنين)في كرمة بني سعيد على مقربة من سوق الشيوخ ،سوق الشعر،سوق النخيل،سوق الماء..ولد السيد مصطفى جمال الدين في يوم ٥-١١-١٩٢٧ عاش طفولته يتعلم القرآن الكريم على يد الكتاتيب، وبعد الصف الرابع في ناحية كرمة بني سعيد توجه إلى الدراسة الحوزوية في النجف الاشرف،

علميته:

تتلمذ على يد أعظم الفقهاء السيد ابو القاسم الخوئي والشيخ محمد أمين زين الدين،شكل السيد مصطفى جمال الدين رابطة أدبية(أسرة الادب اليقظ) التي ضمت مجموعة لامعة من العلماء الادباء الشيخ د-صالح الظالمي-السيد د- محمد بحر العلوم والشيخ ضياء الخاقاني والسيد حسين بحر العلوم والسيد محمد حسين فضل الله والشيخ محمد الهجري والشيخ جميل حيدر.. ويذكر الشاعر التنوع في النجف لطلب العلم أن المرحوم الدكتور حسين مروّة . وهو ذو ميول يسارية . كان طالباً في مدرسة الخليلي، تجمع حوله طلاب أعرف بعضهم، فيهم العراقي، والاحسائي، والبحراني، وقد طبع أكثرهم بطابع الشيخ حسين مروّة، فكره السياسي، حتى بعد تفرقهم وعودتهم إلى بلدانهم إضافة إلى ما كان يصل النجف من دوريات (صحف ومجلات) فيها من الفكر والثقافة ما يخالف الجو الديني المطبوع في النجف، فكانت هذه القراءات المتواصلة المتنوعة مع ثقافة الوافدين عوامل أساسية في إنضاج رؤيته،

وقد عاد الى مدينته عام١٩٥٣ بعد رحيل جده،بعد أن اسس له موقعاً مميزاً بين علماء وأدباء النجف الاشرف وتسنم عمادة جمعية الرابطة الادبية حتى حلها بداية تأسيس كلية الفقه عام ١٩٥٨،التي قبل فيبا طالباً ليتخرج منها عام ١٩٦٢،ويصبح معيداً في نفس الكلية ليصل بعدها على شهادة الماجستير عام ١٩٧٢،ومن ثم الدكتوراه بدرجة أمتياز ، عمل مدرساً في كلية الاداب جامعة بغداد حتى عام ١٩٨١،بعدها غادر وطنه العراق الى الكويت التي لم يمكث فيها طويلاً ثم إلى بريطانيا وعاد إلى الكويت ثانية وبسبب المضايقات،إضطر إلى تركها متجهاً إلى سوريا التي تعج بالعراقيين،وكان دوره الوطني كبيراً شهدت به جميع الاوساط السياسية والاجتماعية فكان عوناً لهم بمهجرهم وحالاً لجميع مشاكلهم وكان مأوى الافئدة التي تهفو إليه،ساعياً للوقوف إلى جانبهم بكل شاردة وواردة لما له من حسن جاه لدى السوريين..

شاعريته:

تميز شعره بالاصالة،والجدة ، كما وضح بأنه وظف الكثير من قصائده في صراعه المتعدد مع الجهات الدينية لتطوير المناهج وكذلك موقفه من النظام السياسي في العراق. إلا أن دراسته الدينية في النجف الاشرف ، مع شغفه وولعه وحبه للشعر دفعا به للتعرف على شعراء العراق المعاصرين ، أمثال : السيَّاب ، والبياتي ، والجواهري ، لكن كان للجواهري أقرب له . أما عن شعره فإنه يمتاز بميزة وهي المزج بين الشعور الوطني والغزل ، وله مبادرات إنسانية معروفة يتفاعل فيها مع الحدث الحياتي ، ويعلِّق عليه بطريقة الشعر..قصيدته المدوية الساحرة الاخاذة عن بغداد عام ١٩٦٥م ومطلعها:

بغدادُ ما اشتبكت عليك الاعصرُ إلا ذوت.. ووريق عُمرِك أخضر

مرّت بك الدنيا، وصبحك مشمس ودجت عليك، ووجه ليلك مقمرُ

وقست عليك الحادثاتُ، فراعها أن احتمالك، من أذاها أكبرُ
حتى إذا جُنت سياط عذابها راحت مواقعها الكريمة تسخَرُ
فكان كبرك إذ يسومُك تيمرُ عنتاً دلالك إذ يَضُمّك(جعفر).

أما غزله الشفيف العذب فله ميزة خاصة لأنه ينطلق من فاضل بالعلم ووقور

تسائلني حُلوتي: من أكون إذا أنت أبعدت عن حيّنا
وأسلمتني لركام الهموم يعيا بوطأتها بيتُنا
ويا حبذا لو تركتَ فؤادي كما كان مِن قبلُ جهم المنى
ترفّ مسالكه باللُغوب فتجني خطاهُ ثمار الوَنى
ولكنّك اقتدتهُ لطريقٍ لذيذ الضياع.. حبيب العنا
فأبدلت حيرته باليقين وصيّرت فقر رؤاهُ غنى

وقصيدته التي ترددها الالسن عن وجع والم رفحا يقضان بعد الانتفاضة الشعبانية والخروج الجماعي للعراقيين لدول الجوار وحجم المعاناة التي تمخضت عن هجرتهم والمعاملة السيئة في محاجر رفحاء..

نبؤوني يامن برفحاء بانوا كيف يغفو بليله اليقظان

ويصف السيد مصطفى جمال الدين ألمه وألم شعبه في المحنة العراقية بأسلوب أخاذ،حفظته القلوب وردته اينما حلت في مهاجرها... فقد تناول الاغتراب المكاني بشيء من القداسة والوهج الابداعي...

جارَتْ عَلَيَّ بحُكْمِها ألأيامُ وَأنا إلَيْك تَقودُني الأحْلام
وَأراكَ ياوطَني الحبيبَ مُعاتبي وَ أنا اُعاتَبُ دائماً وَ ألامُ
ذَنْبي فراقُكَ يا عراقُ وَإنه إثْمٌ تَهونُ بجَنْبه الآثامُ
أنا ما هَجَرْتُكَ يا عراق وَإنّما قَدْ جَرَّني لفَراقكَ الإرْغامُ
قاسَيْتُ آلامَ البُعاد وَشَفَّني وَجْدٌ وَحُرْقَةٌ مُبْعَدٍ وَ هيامُ
أبْكي عَلَيْكَ وَ رَمْلُ رَفْحَة شامتٌ وَ يَلُفُّني مِنْ شاطئَيْكَ غَرامُ
عَيْني بَكَتْكَ وَلَمْ تَذُقْ طَعْمَ الكَرى وَ خَصيمُها وَقْتَ المَنام مَنامُ
وَ كَأنَّ ما بَيني وَ بينَ وسادَتي هَجْرٌ وَطولُ تَنافرٍ وَ خصَامُ
وَسِنينُ يوسُفَ عِشْتُ منها أربَعاً وَ أمَرَّ منها مَرَّتِ الأعوامُ

مؤلفاته:

تميزت بالتجديد والعمق اللغوي والابحار في العلم والفقه واللغة وإصولها،ولازالت لها قيمتها العلمية الخالدة وقدذكر منها

١-الايقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة
١-القياس حقيقته وحجيته.رسالة ماجستير .
٢-البحث النحوي عند الأصوليين.رسالة دكتوراه .
٣- الانتفاع بالعين المرهونة.بحث فقهي .
-٤ الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة .
٥-ديوان شعري-عيناك واللحن القديم-
٦- الاستحسان حجيته ومعناه -بحث منشور-
٧-حرية الارادة بين الفلسفة والعقيدة-بحث منشور-
٨-رأي في تقسيم الكلمة.
٩-رأي في الشعر الحر.
١٠ محنة الاهوار والصمت العربي.
١١-هوامش على محنة الشيعة.

وفاته:

لقد ألمت به المعاناة لما أصاب شعبه من ظلم وقسوة وجور وحصار وتشريد وداهمه المرض في سوريا ليغادر الحياة الفانية وينتقل إلى الرفيق الاعلى مجاهداً مقاوماً تاركاً خزيناً إبداعياً خالداً في يوم الاربعاء ٢٣-١٠-١٩٩٦ لتصبح حي السيدة زينب يعج بالالم ومرارة الرحيل .. إستذكره أبناء شعبه بمهرجانات أدبية بعد الحرية في بغداد والنجف الاشرف وأخيراً المهرجان الاول للسيد مصطفى جمال الدين في سوق الشيوخ من١-٢-١٢-٢٠٠٩ بحضور نخبة من شعراء وأدباء العراق في كرنفال خلد سيرته العطرةويتجدد ذكره العطر بالمهرجان الثاني في المركز الثقافي بسوق الشيوخ ليومين متتالين في١٩-٢٠-٢-٢٠١١ من خلال فعاليات ثقافية متنوعة ؛بحوث عن انجازه الادبي والعلمي وسيرته العطرة مع العرض المسرحي للمخرج جميل ماهود وكذلك يقام في المركز الثقافي في سوق الشيوخ معرضا للفوتغراف والتشكيل بلمسات جمالية ساحرة....

مصطفى جمال الدين.. حين يجتمع الفقه والشعر

مصطفى العمري

اشتهر السيد مصطفى جمال الدين عربياً ودولياً واصبح نجماً عراقياً بعد اشتراكه في المهرجان الكبير بمؤتمر الادباء العرب الذي عقد في بغداد عام ١٩٦٩ بقصيدة الملم جراحك حيث فاجأ الحاضرين بتلك القصيدة الرائعة بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ . كان صوته الجهوري وإلقائه العذب وكلماته المنتقات اثر واضح على من يتقنوا فن الشعر والادب ، في ذلك المؤتمر الذي هز جدرانه برائعته ، كان الاستاذ انيس منصور (مصري) قال عبارته المعروفة والمشهورة قال (لقد خدعنا بمظهره) الامر الذي جعل الادباء المصريين يكتبون عن السيد مصطفى جمال الدين في كتاباتهم مثل الاستاذ صالح جودت وانيس منصور وعبد الرحمن الشرقاوي وغيرهم مما مهد لحضور السيد الواسع في المجتمع المصري . ثم بعد حين التقى السيد مصطفى جمال الدين باحمد الصافي النجفي (شاعر عراقي) فقال له النجفي (اهم شيء انا اعتز به هو حضورك مؤتمر ادباء العرب ووقوفك بعمامتك هذه لتخبرهم بان الشعر العربي و الادب العربي هو للعمائم اولاً) كان الجميع يتوقع من هذا الشيخ ان يقول مرثية لا ترقى الى شيء واذا به يصدح ويشنف مسامع شعراء العرب بقوله :

لملم جراحك واعصف ايها الثار
ما بعد عار حزيران لنا عارُ
وخل عنك هدير الحق في اذن
ما عاد فيها سوى النابال هدّارُ
وخض لهيب وغى لابد جاحمها
يوماً فإن بريق السلم غرارُ
ان تحرق البغي .. تجلوا ذُلَّ موقفنا
أو تُحترق فطريق الجنة النارُ

الى ان يقول :

اعراس وهران في الخرطوم صاخبةً
وجُرح تونس في البحرين نغّارُ
والقدس عارٌ طعمنا منه دجلتنا
مُرّاً ومُجّت به في النيل أثمارُ

في عام ١٩٧٤ نال شهادة الدكتوراه بتقدير ممتاز في رسالته الموسومة (البحث النحوي عند الاصوليين)

بغداد في ضمير السيد مصطفى جمال الدّين :

تعد قصيدة بغداد رائعة من روائع الادب العراقي والعربي حيث تغنى السيد جمال الدين بهذه المدينة العراقية المطبوعة في قلب الابداع العربي وتاريخ العرب ، وبما ان الشاعر يحمل هم الانسانية والثقافة والإبداع نراه لاينتمي الى طرف دون طرف ، او يميز طائفة على اخرى .

في قصيدة بغداد نجده يستعرض صور العصر الذهبي لمدينة بغداد في الحكم والسياسة والعلم ، والادب ، والفن وغيرها ثم يتساءل عن بناة هذا العصر : أهم الخليفة و الوزير و الحاجب والامير ؟ حيث لا نجد في تاريخنا العربي غير بغداد المدورة . أم هم القائد والمعلم والمهندس والفيلسوف والشاعر والفنان والمزارع وامثالهم ، ممن تناسى التاريخ مساهماتهم في بناء هذه الحضارة العربية ؟ ويدعو في النهاية لتكريم بناة بغداد الحقيقيين وبخاصة العبد الالفي كان مشتركاً بين بغداد وفيلسوفها العربي ابي يوسف الكندي . فيقول في مطلع هذه القصيدة:

بغداد ما اشتبكت عليك الاعصرُ
إلا ذوت ووريق عمرك أخضرُ
مرّت بك الدنيا وصبحك مشمسٌ
ودجت عليك ووجه ليلك مقمرُ
وقست عليك الحادثات فراعها
ان احتمالك من أذاها اكبرُ
حتى اذا جُنت سياط عذابها
راحت مواقعها الكريمة تسخرُ
فكأنّ كبرك إذ يسومك تيمرٌ
عنتاً – دلالك اذ يضمك جعفرُ
وكأن نومك اذ اصيلك هامدٌ
سنةٌ على الصبح المرفه تخطرُ
وكأن عيدك بعد الف محولة
عيدُ افتتاحك وهو غض مثمرُ
لله انت فأي سرٌ خالدٍ
أن تسمني وغذاء روحك يُضمرُ
ان تشبعي جوعاً وصدروك ناهدٌ
او تظلمي أفقاً وفكرك نيرُ
بغداد بالسحر المُدى بالشذى ال
الفواح من حلل الصبا يتقطرُ
بالشاطئ المسحور يحضنه الدجى
فيكاد من حُرق الهوى يتنورُ
واذا تهدّج بالرصافة صوتُه
جفلت بمصر على صداه الاقصرُ

الى ان يقول

والان يابغداد يأزف موعدٌ
لك في الخلود قلوبه تتنظرُ
من كل من اعطاك غضّ شبابه
ومضى يذابل عمره يتعثرُ
يترقبونك : والطريق امامهم
جهم المسارب ضيقٌ مُستوعرُ
يبس الزمان وهم على اطرافه
عذب بما تَعدينه مُخضوضرُ
فتعهدي ما يأملون وانعشي
لقياهم فهم بمجدك اجدرُ

رفعوك من قطع القلوب وحقهم – منك الوفاء لهم بما هو اكثر

الموقف السياسي:

لم نسمع ان السيد مصطفى جمال الدين قد انتمى الى حزب سياسي ومن حقنا ان نتعرف على اسباب هذا العزوف والكشح عن السياسة من قبل السيد جمال الدين ، أَلوَهن في مداركه السياسية ؟ او لرغبته في ترك السياسة ؟ فيجيب :

(انا لست سياسياً محترفاً ولم احاول طيلة عمري ان انتمي الى اي حزب او تكتل سياسي دينيا كان او علمانياً ليس ذلك لاني لا افهم في السياسة كما يقولون فظروفنا نحن العرب والواقع الذي تعيشه امتنا جعلت من السياسة خبزنا اليومي وفرضت على كل واحد منا ان يكون سياسياً رغم انفه فأنا افهم السياسة اذن كما يفهمها المحترفون ولكني اعتقد ان موقفي هذا ينطلق من كوني شاعراً يؤمن بحريته في اختيار مواقفه من القضايا العامة التي تحيط به وفي طريقة تناوله لهذه المواقف والانتماء السياسي – او هكذا عودتنا صرامة الانتماء في وطننا العربي – لا يتركوا مجالاً لأي شاعر يريد ان يعبر عن مشاعره واحاسيسه ،في قضية ما ، بالشكل الذي يمليه عليه وجدانه، لذلك توصلت من زمن بعيد الى رأي قاطع هو : ان الشاعر العربي إما ان يكون شاعراً ....او سياسياً منتمياً وفكرة وجود الشاعر المنتمي اشبه بفكرة وجود بعض الحيوانات الاسطورية ، ليس له واقع في عالمنا العربي واذا افترضنا وجود ذلك (الشاعر المنتمي) افترضنا وجود مخلوق مشوه الملامح ، لا تستطيع ان تلحقه بالشاعر ولا بالمنتمي لان الانتماء يتطلب الخضوع الصارم ، الذي نعرفه لمواقف جهته ، فينتقص ذلك من شاعريته بمقدار خضوعه لانتمائه والعكس صحيح ايضاً .)

هاجر السيد مصطفى جمال الدين عام ١٩٨١ من العراق الى الكويت ثم انتقل الى سوريا طاف في أرجاء العالم ينقل هموم شعبه ومحنة وطنه وعذابات مواطنية .

له قصائد عديدة تَنَقّلَ بها بين المرح والفرح الى الحزن والغربة ومن الغرام والعشق الى الوطن وهمومه فكتب في مجالات عدة .

هذه قصيدة يصف بها الوطن فيقول :

ويا وطناً لو ان الخلد ازرى بروتقه
لقلت له حسودُ
اديم ثراك اروع ما نُفدي
ونبع رواك انبل ما نرودو كأن حصاك
ممتقعاً — قلوب يقلبها على ضرم
صدودُ

وطيب نسيمك الساجي
عتاب تهدهده على امل وعودُ
احبك بل احب خشوع نفسي
ببابك حين احلم بيعود
واعشق فيك آهة كل قلب
له بين الثرى غزل فقيد

وقصيدة اخرى هي تلك التي كتبها في حال العراقيين في مخيم رفحاء وعن يقظان الطفل الذي ولد في رمال الصحراء فقال :

ياوليد الصحراء ذكريني قو
مك أن العراق كان وكانوا
وسيبقى غيرُ الفراتين لم يص
نع عراقاً وليخسئ النسيانُ
كيف غالوا دم الشعيبة والعش
رين والكوت واستباحوا وخانوا

كيف تظما بنت الرميثة في نجد
وتسقى فراتها الذؤبان
كيف جاءت بنو تميم من الهند
وهلت من مكة التركمان
كيف يُنمى الى علي فتىً يأباه
من لؤم عنصرٍ مروان
وليقل ما يريد ولينشر الاعلام
ما شاء بثه السلطان
فسيأتي يومٌ به ينطق الحق
بليغاً ويخرس الخيزران
وستنشق عن بنيها بطون الارض
والغادرون كانوا فبانوا
وبسوق الشيوخ لا رمل رفحا
من جديد سيولد اليقظان
وسترتدُ كل شاخصة خجلى
وتبقى لأهلها بغدانُ
الفراتان ماءُ يعرب لا الاتراك
ترعاهما ولا ايران
ياوليد الصحراء انت على الصحراء
نبتٌ يغرى به الارجوان
ولدتك الشحناء ذئباً فكن
ذئبَ فلاة في جوفه انسان

وللسيد مصطفى جمال الدين ذائقته الخاصة في شعر الحب والغرام فنجده يخرج طليقاً ليكتب شعراً من بحر الشعور ، بعيداً عن عقد المجتمع وتحذلقات الوعاظ ، وايماناً منه بالموقف والمبدأ الذي هو عليه ، فيكتب قصيدة الماجن (الديوان ص ٢٧٥) لكي يرخي اوتار الشعور صوب اللاشعور فتكون هذه الابيات التي يحتاجها العاشقون والمحبون والهائمون لكي تكون بلسم لجراحهم واصلاحاً لحالهم . فيقول :

تقول لي والحب مغفٍ على – يمناي –:
ياذا الشفة الائمة
انت الذي قلت : جنان الهوى
ريحانهن القبل العارمة ؟ !
وقلت : ما الحب سوى دوحة
اغصانها السواعد الناعمة
اوراقها تلك الشعور
تغيُّاتها الانفس الهائمة ؟ !
وهذه النهود اثمارها
والزهر تلك الاوجه الباسمة ؟ !
فقلت : يا سيدتي لم اقل
إلا الذي انت به عالمة !
لم ينصف الحب الذين اجتنوا
اشواكه ، واجتنبوا باسمة
والحب يا سيدتي..نقمةٌ
زائلةٌ..ونعمةٌ دائمة
فما لنا نحن جنود الهوى
وقد حملنا النقم الصارمة
إلا انتشاءً من رضاب اللُمى
وسكرةً بالمقل الحالمة !!
قالت: اذن ياسيدي هذه
مقلتي الفاترة الساهمة
خذها فدى عينيك واعطف على
شفاهي السكرانة الواجمة
قلت :ونهداك ؟ !فقالت : وماشئت ! –
فصاح الحب يا ظالمة

في يوم الاربعاء المصادف ٢٣-١٠-١٩٩٦ فارق السيد مصطفى جمال الدين الحياة فارق الحياة وعينه شاخصة الى وطنه وربوع منطقته واصدقائه ،رحل فترك ادبا جماً وتراثاً خالداً رائعاً في ديوانه (الديوان) صدر كتاب في ذكراه السنوية الاولى اسمه (سيد النخيل المقفى) يحتوي على بعض قصائده الغير منشورة وبعض كلمات الادباء فيه وشيء من سيرته الابداعية.

مصطفى العمري

مع السيد محمد باقر الحكيم

من الحلاج.. الى مصطفى جمال الدين

عبدالمنعم الأعسم

سألت مصطفى جمال الدين الذي وصل الى لندن في منتصف عقد التسعينات للعلاج من المرض القاتل: ماذا بعد هذه المحطة؟ اين سيغرد عندليب الشعر؟

ضحك الرجل متحاملا على الموت الداهم وهو يغص بكلمات موحية: لنقل اولا من انشوطة المرض الخبيث، وبعد ذلك فان العالم فسيح، واضاف: والقبر فسيح ايضا.

ولم يفلت الشاعر من لقاء المهاية. مات في دمشق مهاجرا في ارض الله الواسعة، ومطلوبا للشنق من حكم "المقتدر الثاني" في بغداد، وعينه على خارطة تمتد من اول حرف في ابجديات الشعر الى آخر صيحة احتجاج ضد البربرية الحاكمة والتهجير في بلاده.

وكان هذا المصير سالكا، بالنسبة للشعراء المتمردين والمصلحين واصحاب الفكر على ممر التاريخ، فقد هاجر الحلاج، الحسين بن منصور، قبل الف ونيف من السنين هاربا من سؤال الخليفة وحكم المقتدر الاول، وقد ترك لنا تلك الاسطورة الباهرة عن شجاعة المرء حين يخوض معركة غير متكافئة مع الموت والهجرة والسلطان.

ولد الحلاج، نقلاً عن ابنه احمد، في "طور" مدينة البيضاء باليمن، وهاجر منها الى بلدة تستر ثم الى البصرة قبل ان يستقر في بغداد ويتزوج فيها غير ان زبانية الخليفة ضيّقوا عليه فهرب الى مكة التي لم تتسع لأسئلته وجدالاته فترك اسرته مهاجرا الى ولاية خراسان واقام فيها خمسة اعوام مطاردا من سجستان الى كرمان الى فارس ثم الى الاهواز، انتقل بعدها الى البصرة، ثم الى مكة، فالبصرة، ثم عاد الى بغداد وقد سبقته اليها روايات ملفقة عن ادعاء النبوة، فهجرها الى الهند، ثم وخراسان وتركستان، ثم حاجا الى مكة، وبعدها الى بغداد ليواجه حتفه.

استخدم الحلاج في هجرته الاسطورية القوارب والدواب والمشي على الرجلين، وقبل ان ينزل سيف الخليفة (المقتدر الاورل) كان ينشد:

طلبت المستقر بكل ارض فلم ار لي
بارض مستقرا
/وذقت من الزمان وذاق مني وجدت
مذاقه حلوا ومرا

قال مصطفى جمال الدين، آنذاك، ليست المشكلة في هجرتنا، فقد هاجر الكثير قبلنا.. "تذكروا سفينة نوح" ومدّ يده الى كتاب يقرأ فيه: "قيل يا ارض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وغيض الماء وقضى الامر". قلت له، وماذا عن الشعر ايها العندليب؟ قال بهمس يقرب من حفيف الشجر:

ظمئ الشعر ام جفاك الشعورُ كيف يظمأ من فيه يجري الغديرُ؟

جريدة الاتحاد

مصطفى جمال الدين .. الشعر معرفة ومحبة

رحيم الحلي

يلقي شعره في الصحن الحيدري الشريف

تمر هذه الايام ذكرى رحيل الشاعر الدكتور مصطفى جمال الدين رجل الدين المحب للمعرفة والمؤمن بالمحبة والتسامح ، الانسان الشجاع والملتزم بعقيدته دون ان يكفر الآخر ، رأيته في اوائل الثمانينات في صحن السيدة زينب بقامته العالية وطلته البهية وهو يتفقد العراقيين المهاجرين والمهجرين ، احببت فيه اعتداله الفكري وموقفه المناضل ضد الديكتاتورية الصدامية ، وتفرده في نهجه الفكري فقد احب وطنه واخلص في ولائه ولم يقبل ان يستنسخ تجارب الاخرين او ان يكون امتداداً لهم ، اعتز بعروبته وأمن برسالة رجل الدين كمصلح اجتماعي ومدافع عن المظلومين مبيناً منهجه الفكري الانساني البعيد عن التزمت والتعصب والتكفير وهو القائل:

أنا لست شيعيا لأن على فمي
ذكر الحسين أعيد به وأطنب
ولأن أمي أرضعتني حبّه
ولأنه لأبي وجدي مذهب
لكنني أهوى الحسين لأنه
للمساكين طريق خير أرحب
فالديكتاتورية الصدامية وظلمها لابناء الشعب العراقي تحت عناوين طائفية وقومية دفعته لأن يقف بوجهها وليس وقوفه بتحريض خارجي طمعاً بجاه او نفوذ ، او تعصباً مذهبياً او رغبة في فرض مشروع سياسي بدعم خارجي ، فقد كان شجاعا يكره الظلم لم يخشى بطش الديكتاتورية ، وكان ذو عقل وقلب كبير .

يتحدث السيد مصطفى جمال الدين عن طفولته :

في سن الثالثة عشرة وبعد سنتين من دراستي الدينية لبست العمامة طفولة معممة مبتعداً من نزعة اللعب و المرح والانطلاق هكذا يمكن وصف الحالة وخاصة انني كنت أصغر من يرتدي العمامة من بين اقراني في الحوزة ربما لهذا السبب ظلت طفولتي مؤجلة دائما ، وراحت تعاودني في غير أوانها في الشباب والكهولة وحتى الشيخوخة تعاودني في صور شتى ، فتارة تعاودني بالنزعة للمرح ومداعبة الاهواء ، وطورا في نفحات الغزل التي قد تبدو غريبة عن رجل دين وقور .

يتحدث السيد مصطفى جمال الدين عن ذكريات الطفولة : كانت طفولتي بالقرية طفولة عابرة وتكاد تكون غائمة خلف غمامات السنين والاحداث ففي سن مبكر انتقلت مع عائلتي الى النجف الشرف لتلقي علوم الدين وبحوزتها العلمية .

اكمل السيد مصطفى جمال الدين دراستة الحوزوية وواصل دراساته ليحصل على شهادة الدكتوراه في رسالته (البحث النحوي عند الاصوليين) .

يتحدث ولده السيد حسن جمال الدين عن ذكريات طفولته في قرية ام المؤمنين :

اذكر الطفولة فيها ، ذكريات الصبى ذكريات السباحة ، كيف كنا نسبح بالنهر ، واذكر الشجرة التي كانت خارجة من جرف النهر ، وهي نازلة عليه ، ونحن نجلس عليها وقد وضعنا عليها اخشاب وصنعنا منها مكان جلوسنا ، ونصطاد السمك من النهر ونصنع منه مسكوف ، لكن اكثر ما اذكر ايام العيد ، ففي ايام العيد كنا نذهب الى قرية المؤمنين فيصلي والدي صلاة العيد في احدى المناطق هناك ، و اتذكر كيف كنت انتظر بشوق الخروج مشياً على الاقدام من البيت الى الجامع حفاة الاقدام نحن والجوع ، واتذكر كيف كان يسدل والدي العمامة بطريقة غريبة علينا نحن الاطفال ، فكنا ننتظر هذا الوقت بفارغ الصبر.

الدكتور السيد مطقي جمال الدين هو الفقيه الذي قدم شعراً غزلياً رائقاً قد لانجده حتى لدى الشعراء الذين لا يلبسون العمامة ، ففي شعره الغزلي رسم صورة الحبيبة الجميلة وحاورها وحادثها ، واذا عدنا الى ديوان مصطفى جمال الدين سنجده قد اعطانا صورة للمرأة في المجتمع المتدين لم نعرفها مسبقاً ، وهي صورة الحوار وغير ذلك ، لم تمنعه العمامة على الاطلاق من ان يقول شعراً غزلاً .

فالدين ليس يربه ويسوسه
شيخ بمحراب الدجى يتضرع
تحدث السيد مصطفى جمال الدين عن النجف ومصادرها الثقافية :

يتميز المناخ الثقافي وكذلك المحيط الاجتماعي لمدينة النجف بكونه حاضنة نموذجية للتعدد والتنوع فالنجف مدينة وافدين أكثر من كونها مدينة مقيمين وهو ما جعلها مختبراً واسعاً لاطياف واجناس انسانية متنوعة مما جعلها مركزاً ثقافياً مفتوحاً على أكثر من صعيد فقد ظلت النجف رغم طابعها الديني الإسلامي مركز جذب مهم للثقافة العربية في تحولاتها المختلفة ، كانت المجلات والمطبوعات المعاصرة التي تصدر في مصر وبلاد الشام تستهوي القراء من جيلنا وتمثل نكهة اخرى مختلفة عن اجواء الفقه والتفسير وعلم الكلام والحديث وسائر علوم الدين واللغة ، كما صدرت في النجف صحف و مجلات ليست على الشكل المتحفظ الذي يعيشها مجتمعها كمجلة النجف التي صدرت في العشرينيات .

مصطفى جمال الدين ظاهرة من الظواهر النجفية ، ففي النجف كان بعض رجال الدين لايميلوا الى الشعر ، وهو يقول ان الفقهاء الذين جاؤوا من ايران والمضروبين بالعجمة كانوا لايميلون الى الشعر وعندهم موقف سلبي منه ، بينما نبهرنا موهبة الامام محمد سعيد الحبوبي الشعرية وان توقف الرجل فترك الشعر واخذ الفقه بينما كنت اتمنى ان يأخذ الشعر ويترك الفقه لانه شاعر ينتمي الى عصر الموشح الاندلسي فهو القائل:

جنّ تيها لايبالين الحرس
كل غيداء كمشبوب القبس
قال رائيها وقد فر الغلس
أعلى الابرق برقٌ لمعا
ام بدت سافرةً ذات الوشاح مأماطت عن محياً برقعا
في الدجى الا وخيط الصبح لاح

فالجواهري ترك العمامة وترك الفقه واتخذ الشعر اما مصطفى جمال الدين فقد جمع الاثنين فلهذا يقول هذه صحائف شاعر يقدس الشعر ويقدس الشرع أي انه لايترك الشعر ولايترك العمامة والواقع انه اوجد نوع من التفاهم بين العمامة وبين الشعر ، فكانت عمامته شاعرة وبقي الرجل فقيهاً وعالماً ومجدداً .

من جميل غزله:

سيدتي ماذا أرى
عريش كرم أم مُقل
أم زورقاً سابحاً ن
في غدير من عسل
طافا بنا فصفق
الحب وعربدَ الغزل
أم جمرتان تسرجان
الليل، والبدر أفل

ومن اشعاره

وتَنفستْ رئتاي تَزعمُ انها
سمعت رفيفَ شذاكِ في النسمات
لا كأس تطفئ جانِحَيْ و في فمي
عطشٌ لوجهكِ لافحٌ الجمرات
بردى يلفُ فأجتويه لأنني
ضَيعتُ في عينيكِ عذبَ فرات
واعافُ ظلَ الغوطتين لعلني
أتفيأ الهفهافَ من سعفات

يمثل الدكتور مصطفى جمال الدين جيلاً مختلفاً عما عرفته الحوزة العلمية عبر تاريخها المديد لقد راح هذا الجيل تحت تاثير دعوات الاصلاح والتجديد التي قالها الشيخ محمد رضا المظفر ينادي بضرورة النظر الى الثقافة نظرة اخرى جديدة نظرة لا تقوم على اجترار تلك الاسس بالمناهج والتفكير المعتاد في مراحل الدراسة في الحوزة فثقافة رجل الدين لم تعد محدودة في نطاق الفقه والتفسير وعلم الكلام و العلوم اللغوية .

التجديد في مناهج الحوزة في النجف الاشرف كانت مهمة صعبة وشاقة في ذلك الوقت ولكن أيضا في نفس الوقت كانت ضرورة ملحة ذلك ان كثير من المناهج الدراسية كانت مناهج قديمة وفيها الكثير من العجمة والاشياء المبهمة حيث تستغرق من طالب العلم سنين طويلة حتى يكمل دورة كاملة مثلاً في الاصول او الفقه .

يتحدث مصطفى جمال الدين عن ذلك قائلاً .

كنت احس بعمق الاهتزاز التي تستبطنه مقررات الجامعة النجفية وجمودها وعدم اخذها بأسباب التطور المطلوب بما تقتضيه ظروف العصرنة التي نعيشها .

يتحدث المفكر حسن العلوي عن جهود السيد مصطفى جمال الدين في التجديد:

كان احد رافعي لواء تجديد المناهج في الحوزة العلمية وطالب حتى بادخال اللغة الانكليزية ودراسة العلوم الطبيعية ونجح بالتظافر مع جهود الشيخ المظفر ومحمد مهدي شمس الدين ومحمد تقي الحكيم بتأسيس كلية الفقه في النجف وكلية اصول الدين في بغداد وبدأت هذه الكلية تمنهج الدراسات الدينية على غرار ماهو قائم في الازهر الشريف ، وطالب بدراسة جميع المذاهب الفقهية وكانت دعوة رائدة ، فمصطفى جمال الدين فقيه واكاديمي وشاعر .

كان متصالحا مع نفسه ومع الناس ومتسامحاً يحمل روحاً عصرية مجددة تمتد بجذورها الى حركة النهضة العربية ، لم يكن مجرد رجل كهنوت معتكف ، فبنظره ان لباس الدين مسؤولية جسيمة وليس مجرد زياً تنكرياً لتحقيق مآرب شخصية وهو القائل :

شددت ان ابقى حيث أنا شاعراً لامنتمياً
اقف مع الجميع واختلف مع الجميع
في حدود تسمح لي بالأحتفاظ بما
يمليه عليَّ وجداني الشعري من جهة
والتزامي السياسي والفكري من جهة
اخرى .

ابتعد الشاعر عن الفكر القومي كمفهوم متعصب رافضاً انتماءاته واطره الحزبية ومناهضاً الانغلاق الايديولوجي :

نشأت شاعراً عروبياً أؤمن بها ، ولدي تمييز هنا بين العروبة والقومية ، فالعروبة برأيي هي الاصل والقومية مفهوم وافد من الثقافة الاوربية لتغيير الخصائص الطبيعية لمفهوم العروبة .

لاطائفيةً تَرمي المسلمين بها يدُ تطاير
من أطرافها الشررُ
ولاتطرفٌ لقومية غرست تفريق فينا
فبئس الغرسُ والثمرُ

حقاً كنت ذا قلب وعقل كبير فقد كانت حياتك عامرة بحب الادب والمعرفة بالوانها ، احببت شعبك المظلوم وكرهت الظلم ، ورفضت العصبية فقد كنت متصالحاً مع الحياة والناس ، فكم خصلة نبيلة حملت شجرتك العالية ، فسلاماً لك ايها العلامة والشاعر الدكتور مصطفى جمال الدين في ذكرى رحيلك المحزنة التي اضافت لغربتنا حزناً اخر ، فقد كنت شجرةٌ خضراء وافرة الثمار بهية الطلعة ، وصرت مزاراً لزائري مقبرة الغرباء في السيدة زينب تذكر الزائرين ان العراقيين قد اودعوا نبعاً للمعرفة والادب في غربتهم المريرة .

مصطفى جمال الدين كما عرفته

عبد الحسين طاهر

أزعم أنني احد الذين يعرفون الشاعر الكبير مصطفى جمال الدين ولبساطة هذا الرجل ودماثة أخلاقه وصل الأمر بأن أكون واحدا من سماره الذين يستمعون لقصائده ويشق بهم ويأتمنهم على بعض أسراره مع حداثة سني !!..ودعوني أهرطق وأقول يبثهم لواعج حبه لأهل «البصرة» أظنه كان أستاذا بجامعتها فأصابته واحدة من حورها «حور البصرة» بسهم من عينيها.. لم يحتمل السيد الذي هو سليل عائلة دينية وثقافية كبيرة سهام الحب وجاءه هذا السهم «القاتل» على حين غفلة ومن حيث لا يدري وهو الذي كان يتحاشى سهام عيون حلوات كرمة بني سعيد وبنات سوق الشيوخ ويلوذ بغض النظر أو ينظر لهنّ «....!؟» فوقع في سهم واحدة من حوريات البصرة...أي نعم وقع السيد ...وقضي الأمر وكان قتيل العيون التي في طرفها حورا!

كان رحمه الله يتعجل فراغي من زحمة العمل ليتحدث إلي دون أن أراه أو يراني لأننا نتواصل عن طريق الهاتف والحقيقة انه يلح علي لزيارته لنتقابل وجها لوجه ولكن دواعي الخجل وقلة التجربة آنذاك هي التي حالت دون أن انعم بوجبات من الغدايات والعشيات على طبور الخضيري مع العنبر..وعلى مائدة سليل العائلة المرزائية واعتمدت صحبتنا «صداقتنا» على شهرته كرجل دين وشاعر وإنسان فذ وعلى حكايات عن الحب . فأنا عاشقا أيضا وقعت في حب «ام العلاء الدراجية» كنت أرويها له وكانت ولا شك تحببني إليه وفي حينها كنت مأمور بدالة سوق الشيوخ مابين عام ٦٥.٦٤ استلم الوجبة المسائية من الساعة السادسة إلى الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل أقضي نصف ساعة على الأقل بالتحدث مع السيد مصطفى جمال الدين الشاعر والمثقف والعاشق أو أوصله برقم تلفون بصري أحفظه على ظهر قلب وإذا كان لي من شاهد فشاهدي .. مأمور بدالة كرمة بني سعيد المعروف بالملا وشاهدي الآخر الذي أعول عليه كثيرا و«أبحث عنه طيلة هذه الفترة ولم أجده «هو ولده الذي لا اعرف اسمه» التقيناه مرةً بالصدفة أيضا أنا وأخي الأصغر» مقداد ابو ماجد» . راح شهيدا بانتفاضة آذار، التقيناه في مدينة العمارة أيام محرقة حرب القادسية في الكازينو الكائنة خلف البريد الكبير في العمارة وكان يجلس إلى جانبنا على الطاولة المجاورة أظنه سمع حوارتنا المهووسة بالسياسة ومعارضة الحرب أراد حمايتنا،نعم وهو لا يعرفنا بعد انتقل إلى جانبنا وهمس... أهدءوا.. أصواتكم عالية ..وحلوّت الجَلسة بوجوده تحدث لنا بالسياسة وبالثقافة وبالحرب والسلام ونحن نفغر أفواهنا على قدراته العجيبة في «طشّ الحديث ولمه».. فطفقنا فرحين نهصر الزيتونات على كؤوسنا المترعة ونتلمظ بحلاوة أحاديثه الشيقة ...غرب بنا الى الناصرية وشرق الى سوق الشيوخ وكرمة بني سعيد وعندما عرف أننا من تلك النواحي بادرنا بالسؤال أتعرفون «المرزات»؟ وأجبنا بنعم..قال... أتعرفون الشاعر مصطفى جمال الدين؟ وقبل ان نجيب قال.. أنا هو ابنه...عندها لم أتمالك نفسي هجمت عليه باغته.. لأطوق عنقه بذراعي أريد تقبيله وتسببت بكسر الأواعي وسكب المايات وبعثرت الزيتونات العامرات منهن والمهصورات على الطاولة لكنه لم يفاجأ كان يقضا فخلص نفسه بأعجوبة وبقدرة قادر وبعنف نهض.. ونهرني ...ما بك...تخبلت؟ ...أتحدث معك لساعات وعندما عرفت والدي ترعبلت.ها..لأنه رجل دين؟ والحقيقة والواقع ليس الدين هو الذي يشدني الى والده « فصحيتي مع الدين خفيفة» بل لأنه شاعر ومثقف وعاشق وإنسان من طراز فريد بالطبع اعتذرت منه وتأسفت عن تصرفي الأخرق لكنني لم أتعظ لحظات وعدت أصدع رأسه بالحديث عن ذكرياتي الخاصة مع والده ..الزيتون المهصور على ما يبدو كان هو السبب.. بإثارة عواطفي..وافترقنا....بعد يومين فقط جاء ابن مصطفى جمال الدين الذي لا اعرف اسمه يسأل عني في الدائرة ..دائرة بريد العمارة فأنا في ذلك التاريخ كنت أتنقل «أدور على الولايات» من الناصرية الى البصرة ومن ثم إلى العمارة ..نقلوني بناءً على مقتضيات المصلحة العامة ومنعوني من العمل على البدالة!!؟... والتقيته للمرة الثانية كان ذابل اللون وعلى خده كدمة زرقاء كأنها شامة كان الرجل مبتسما لكنه واجهني بالقول..عمي انشسويت بيه أنت وأخوك «الله يغربلكم» ليلتين، وأنا بايت عند الاستخبارات من وراكم ...انظر وكشف لي عن ظهره ورأيت عدد من شطبات الكيبل المعدل على ظهر السيد ...عندما عانقته للمرة الأخيرة لكي أودعه دسست في جيبه مبلغا لا يساوي شيئا بالكاد يوصله إلى أهله وافترقنا أخيرا ..... ولأنني بكّاء.. طفرت من عيني دمعة ورايته يستدير بسرعة حتى لا أرى دموعه ....يا سامعين الصوت... يا قراء... يا اهل المحبة.... بلغووووه..... تحياتي...

تراث مصطفى جمال الدين

فراس جمال الدين
من اسرة النقيب

أيها الصاعدُ المغذُ مع النجم
هنيئاً لك الجناح الخبيرُ
قد بهرت النجوم مجداً واشعاعاً
وإن ظن انك المبهورُ
بالامس كان السيد مصطفى جمال الدين شاخصاً بيننا في ديربورن مشيكان
واليوم هنا في ولاية تكساس يُطل علينا بقامته التي تحاكي نخيل العراق ، يسافر بنا بأجنحة من الخيال والحب وينتهي الى وأقعنا المليء بالشجون ،فيثمر هواه، وليس لنا إلا ان نجني تلك الثمار فتكون لنا زادنا في دربنا الطويل.
كان حبُه لوطنه لا يعادله شيء حتى انه في مقدمة ديوانه كتب الأهداء شعراً الى الوطن حيث قال:

سيدي ايها الترابُ الذي
عشنا على خصبه
ونحن بذورُ
ورضعنا أخلاف دجلة
وأمتدت بخضن الفرات منا الجذورُ

فالى كل نخلة لم تطأطىء
رأسها واللظى عليها يجورُ
والى كل نبتة شمخت ظمأى فماتت
وما لواها الهجيرُ
جئتُ أهدي الديوان يعبق منفياً
وما ضمخ الطغاةُ العبيرُ
لائم . لانه وكما يقول: ((ان الانتماء يتطلبُ الخضوع الصارم الذي نعرفه لمواقف جهته فينتقص ذلك من شاعريته بمقدار خضوعه لانتمائه والعكس صحيح ايضاً)) .ففضل ان يكون كما هو يقف مع الجميع ويختلف مع الجميع. فهو كما يعرف نفسه : عربي في وجوده و مشاعره ،مسلمٌ في هويته و دينه، ديمقراطيٌ في اسلوبه و

والمحطات المهمة في حياة السيد مصطفى جمال الدين فهو كما يعرفه الجميع الفقيه العالم والأديب الشاعر الذي مزج بين العلم والأدب وأبدع في كلا المجالين .
لم يكن السيد مصطفى جمال الدين منتمياً الى اي حزب او تكتل سياسي – دينياً كان ام علمانياً – كان انتماءه الوحيد لوطنه و شعبه فكان حر الجناح لا يهاب في قوله الحق لومة ممرساته..
فنراه بعد حين يحاول ان يجمع صفوف العراقيين في الغربة وكان قادةُ الكتل السياسية تجتمع لديه لتبادُل الاراء . فكان يدعو الى التوحد ولم الصفوف بين جميع الاطراف والاحزاب العراقية في الخارج آنذاك، فرسم لهم صورة العراق الجديد إذا ما توحدوا.

يقول في احدى قصائده يصف تلك المرحله:
ايها المدلجون في ظلم المنفى
قفوا فالطريق وعرٌ معاقٌ
ارجعوا او توحدوا فالذي
انتم عليه مُر الشرابِ زعاقٌ
فقصارى ما تأملون تصاريحٌ
سمانٌ تلوكها الاشداقُ
وحوارٌ مضى و آخر ياتي
واجتماعٌ عليها و افتراق
ثم لاشيء غير أنا قطيعٌ
باعه المترفون منا.وساقوا
وسلاماً على العراق وأهلاً
بالمنافي ان ضاع منا العراقُ

ثم يصل الشاعر الى اقصى مراتب الحزن بعد ان شرد جزار العراق الاف العراقيين الى صحراء (رفحاء) فاصبح هجير الصحراء مأواهم الوحيد من بطش النظام الظالم . فوصف معاناة شعبه وثورته الشعبانية ضد الظلم والطغيان من خلال قصيدته الشهيرة (يقظان) فكانت ملحمةً تأريخيةً سجل فيها أهم مرحلة مر بها العراق في تأريخه الحديث. يقول فيها:

نبئوني يا من برفحاء بانوا
كيف يغفو بليلها اليقظان

كيف هزُت عواصف الرمل مهداً
ضجرت من بكائه الأوطان
ضاق فيه حضن الفراتين ذرعاً
فتلقته هذه الكثبانُ
غير أنا على الصحارى وما هنا
وهم في ذرى القصور وهانوا

لقد ترك لنا السيد مصطفى جمال الدين تراثاً جماً ، فبالأضافة الى كتبه المطبوعة ، هناك الكثير من البحوث العلمية غير المطبوعة بالأضافة الى المسرحيات والأحاديث الشعرية التي تركها للتأريخ الأدبي.
فجاءت هذه الأيام الثقافية ونحن في أقصى الغرب لتؤ كد حضور الغياب ولتكون رداً على المطالبات الأخيرة التي تدعو إلى نقل رفات السيد مصطفى جمال الدين إلى النجف الأشرف والتي تستقبل عاصمة الثقافة الأسلامية و كان الأجدر أن يكون تكريم المبدعين من خلال إحياء تراثهم وتعريف الأجيال الصاعدة بنتاجهم الفكري و الأدبي وليس بنقل الرفات.
فسلاماً على مصطفى جمال الدين ،على قلبه الكبير ، على تلك السبعين التي ماعرفت زيغ الضمير، على الحروف التي احياها بعد موتها فتظل بيننا نستاف طيبها بين السطور فتبقى لنا وللاجيال القادمة شمساً لا يخمدُ لهيبها.
وختاماً تتقدم أسرة العلامة الشاعر الدكتور السيد مصطفى جمال الدين بالشكر الجزيل الى وزارة الثقافة العراقية ممثلة بالمركز الثقافي العراقي في واشنطن برئاسة الاستاذ الدكتور محمد حسين الطريحي وليس غريباً عليها فهي السباقة للأحتفاء بمبدعيها و مفكريها ، كما نتقدم بالشكر الجزيل لجميع المشاركين كتاباً و شعراء والحضور الكريم ولكل من ساهم في احياء هذه الايام.

كلمة اسرة الشاعر مصطفى جمال الدين في مهرجان دالاس القاها حفيده فراس جمال الدين

مصطفى جمال الدين وشاعرية بغداد

علوان السلمان

الشعر فن اللغة وفلسفة الكلام.. كونه حاجة وجودية وموقف آزاء حركة العالم تتأكد فيه ارادة الانسان من أجل التغيير للوصول الى المثال.. فالانسان الشاعر صاحب القضية (ينشيء من العالم المفروض عليه عالمه الذي يحلم به..) كما يقول بول ايلوار.. كونه يمثل قمة الهرم الوجودي بوعيه وقدرته على الخلق والتعبير وقيادة متلقيه الى فكرة عميقة وتفكير أعمق انطلاقا من واقعه ومن خلال شعره الذي يولد وسط المعاناة.. فيمتلك صدقه معبرا عن أصالة الشاعر..كونه يعبر عن ذاته بوساطة الألفاظ معتمدا الانفعال.. الحالة القائمة بذاتها والذي هو الحركة الشعورية التي تسيطر على النفس وقواها الفكرية.. وهو أصل كل تجربة جمالية.. باعتبار الجمال صفة الفكرة التي تتجسد بشكل رمزي.. لذا فحركة الخلق الشعري وسيلة تعبيرية ذات وظيفة جمالية ودلالة اجتماعية.. والشاعر مصطفى جمال الدين في قصيدته (بغداد) يحاول أن يجسد كل ما يراه ويحسه بمنتهى الصدق مع استيعاب لتفاصيل الصورة وجزئياتها لغرض إثارة المتلقي عبر تماسه بها.. كما تحمله على الاحساس والتفكير معا.. فالتجربة الشعرية عنده تقود الى رؤية عصرية من خلال حصار ذاتي للشاعر.. لكن هذه الرؤية لا تنتهي بالتشاؤم كونها مغامرة وجدانية تتحد بالواقع المتفجر وتتجاوزه كمحاولة تشكل تحديا انسانيا برصد تمزقاته وصراع مفاهيمه.. بغداد ما اشتبكت عليك الأعصر إلا ذوت ووريق عمرك أخضر مرت بك الدنيا وصبحك مشمس ودجت عليك ووجه ليلك مقمر فالطبيعة صورة هادئة بخلفية شفيفة تداعب المشاعروظفها الشاعر نفسيا من خلال وصفه (بغداد) المدينة الأزلية المورقة بلا انقطاع.. فعمرها زاه بخضرته بالرغم من تعاقب الاحتلالات والغزاة.. وهذا يعني إنه ينظر للواقع والموجودات من زاوية الأمل والتفاؤل.. وابتعاد عن اليأس.. فبغداد كتلة من المشاعر الملتهبة التي تحوم في سماء النفس فكانت رمزا للشاعر وهو يبث ألحانه.. اضافة الى انها بؤرة الصورة التي تتجمع من حولها الخطوط.. لأنها هدف الشاعر.. لذا نجد كل الضمائر التي تتولد في الصور الفرعية تعود إليها.. فمرور الدنيا بسنينها (وصبحها مشمس) وتعاقب الغزاة (وليلها مقمر) وقسوة الحادثات (وصبرها أكبر) بسخريتها من سياط العذابات التي توالت على ظهرها ولم تعرف الانحناء.. بغداد أولاء الذين تحملوا أعباء مجد في الخلود وأوقروا فإذا تصفحنك سفر كرائم لم نلق إلا صورة تتكرر فالشاعر في قصيدته هذه يضعنا أمام نفس انسانية وشاعر مؤمن بالحياة، يؤثر في متلقيه بعاطفة قوية يلفها الصدق.. كونه ينظم الشعر من أجل هدف وطني وروحي أخلاقي.. فيجعل منه منبعا من منابع الراحة النفسية فيكشف عن المضمون الانساني لشعريته التي نتلمس فيها التجربة الشخصية التي تكشف عن انسان متميز ينتج شعرا متميزا بهضمه التراث المتغلغل في نفسه مع سيطرة واضحة على لغته الشعرية فشكل شعره وثيقة ثورية نفسية بسطت روحها بين يدي متلقيها.. فبغداد تأخذ لدى الشاعر بعدا فنيا متمثلا بالبعد الرمزي الذي يكشف عن حالته بشكل مكثف من الناحية النفسية ليعينه على تجاوز الفكرة التي بدأها الى شواهد حية.. فهو يسترجع الماضي حتى يعمق من شعورنا..ذلك الشعور الذي بلغ ذروته في قوله.. بغداد واستقصي الحوادث واكشفي غبشا يطوف بصحبها فيغير وحذار أن تثقي برأي مؤرخ للسيف –لاضميره– ما يسطر. فالتجربة الشعرية الناضجة من الناحية النفسية والفكرية عند الشاعر جاءت نتيجة اتسام فكر الشاعر بالوعي الذي أساسه الموقف الفكري والرؤية الثورية.. وهما الرصيد الذي يكشف عن المضمون الانساني لشعريته.. فقصيدته تستعرض (صور العصر الذهبي لمدينة بغداد في الحكم والسياسة والعلم والأدب والفن.. ثم تتساءل عن بناء هذا العصر المتمثل في المفكر والمهندس والمعلم والمزارع.. ممن تناسى التاريخ مساهماتهم في بناء هذه الحضارة.. لذا فهو يؤكد على أن الشعوب بانية الحضارة لا الملوك..). إن تجربة الشعر عند الشاعرمصطفى جمال الدين اختلاج ورؤى في ضمير الذات كمادة للوعي.. كون القضية الشعرية عنده تعبير عن المستقبل والدعوة لعالم جديد من خلال تفاعل (العاطفة والفكر والخلق)

تمثال (بغداد ما أشتبكت عليك العصر) لمحمد غني حكمت

المنبثقة من صفاء المزاج والاشعاع الروحي والعفة المستمدة من منهج فكري ينسج روحه في فكر الشاعر.. فالقصيدة عنده تجسد حلما يزيدها وعي الشاعر عمقا.. ويكسبها بعدا انسانيا واجتماعيا فجعلها قادرة على التوحد بين الذات والذات الجمعي.. لمفكر يجلو دجاك وقائد يروي به ظمأ الفتوح فتزهر ومهندس يبني الصروح وشاعر بنشاه يسرج ليلها ويعطر ولزارع في الحقل يدفن عمره فتمد منه غرائسه وتعمر ومعلم لم يدر شارب كأسه ماذا يقطع من حشاه ويعصر وهذا ما جعلها ذات وقع على المتلقي.. كونه يضفي على قصيدته من الخطوط ما يجسد تفاؤلها وعالمها الداخلي ويجسم احساساته وانفعالاته بأدق الألوان فتضفي عليها جاذبية وجمالا.. اضافة الى ذلك محاولته تجسيم أبعاد العالم المعنوي.. فالتناغم بين الفكر والاحساس شكل أهم خصائص الشاعر الأسلوبية.. اضافة الى تلك الوحدة الموضوعية بين الشكل والمضمون مع نصاعة اللغة وسلامتها.. فهي بعيدة عن الحذلقة الكلامية والتلاعب بالألفاظ والزخرفة اللفظية.. وقد استعاض عن ذلك كله بالاهتمام والعناية بحقيقة المضمون كعنصر أساسي في حقيقة النص الشعري.. لقد تظافرت الأبعاد اللغوية والفكرية في رسم الصورة الشعرية عنده.. حتى ان كل صورة صارت خلق جديد لعلاقات جديدة في طريقة جديدة من التعبير كما يقول الدكتور احسان عباس.. فصوره الشعرية تعتمد على جزئيات مؤتلفة ترسم لوحتها المتناغمة..لذا نحس بغلبة الناحية العاطفية في نقله التجربة الوجدانية معتمدا على الموسيقى والصورة الشعرية والخيال الشعري الذي يعني في جوهره ادراكنا الوجداني للحقيقة الخارجية.. فهو يزيد من شعورنا وتماسنا بالواقع لا ابتعادا عنه بحكم الوحدة البنائية لقصيدته بترتيب موضوعاته.. كونه يمتلك حسا فنيا وحدسا ابداعيا يحسن الانتقاء في تعامله مع الشعر واختيار المفردة والجملة المرئية في رسم الصورة الشعرية..
فهو يكشف عن مساحة همومه ومأساة شعبه بأسلوب يختلف عن المأساة الرومانتيكية المعبرة عن اليأس وذرف الدموع.. بل ان مأساته تتميز بأنها وسيلة تعبير عن محن الحياة بنزعة تفاؤلية مدروسة بتأمل من الناحية الفنية.. وخلق الصورة الشعرية الكلية وعلاقاتها الجزئية.. فتبرز صورها الشعرية المتناهية التي تشير الى ماهو أعمق من المشهد الوصفي الخارجي.. اذ استعارة الشاعر للقناع التاريخي وتوظيفه في بناء قصيدته.. قصي فنحن وراء (الفك) ليلة أخرى يطول بها الحديث ويقصر عن(عصرك الذهبي) ما طال المدى إلا وناصح وجهه المتصدر لقد وفق الشاعر في بناء قصيدته بفضل تضلعه في الشعر واللغة من جهة.. وما اتصف به من ذوق رفيع من جهة أخرى.. فهو يخوض في غمار العقل والمعقول أكثر مما يساير انطلاق المخيلة مع ابتعاد عن غريب الكلام..
لذا كانت قصيدته واضحة كل الوضوح في معناها ومبناها وفخامتها.. اذ تجلت فيها انسانيته العميقة وشاعريته المترامية في القديم والمنسكبة بقوالب عصره.. فتميزت بجودة اللفظ وحسن المعاني واتساق الكلام.. كون الكلمة عنده فصيحة خالصة من تنافر الحروف والغرابة.. محببة في السمع.. لذا كانت فصاحة الكلام متحققة لا بتعادها عن تنافر الكلمات مجتمعة وضعف التأليف والتعقيد اللفظي والمعنوي.. فكان شعره متحدرا.. منسابا بسهولة مع انسجام ألفاظه.. وعذوبتها وقوة موسيقاها..

العدد (2417)
السنة التاسعة
الخميس (8)
اذار 2012

اليومي والمألوف في شعر (مصطفى جمال الدين)

فليحة حسن

تُعدُّ قصيدة الحياة اليومية واحدة من الموضوعات التي تناولها النقد الأدبي الحديث بوصفها نتاج التكرار المنظور للحالات التي تحمل في طياتها جدلية زمنية، وهي في الوقت نفسه علاقة بين العقل ونتاجه المعرفي ،لأنها تنبع من خضم التفاعل الاجتماعي وانعكاساته على الشاعر، فالقصيدة اليومية تظهر علاقة الشعر بتجارب الحياة اليومية، نعني التجارب العادية البسيطة التي تحدث لنا نحن عباد الله المتواضعين في معيشتنا العادية...على هذه الأرض، فضلاً عن إنها مكاشفة مع الواقع تصل موضوعها بلغتها البسيطة الموحية، وتحاول تصعيد الحاضر لجعله عوضاً عن التراث، إذ يصبح اليومي أساساً للمألوف أحياناً بوصف الأخير تطوراً له. وتزخر فيه دواوين ومؤلفات القدامى والمحدثين، إذ نلحظ فيه نقطة مشعة أو حادثاً مؤثراً، أو ذكرى أو لحظة عابرة أو طيفاً مرّ أو خاطراً تـوارد أو كلمة حبلى أو لمحة غنية، ولعل ذلك متأت من كونه يضم نغمة شعبية مضمرة في تضاعيف القصيدة، وهو عائد إلى كون الشاعر إنساناً يحيا بين الناس، وهو بطبيعة الحال يتمتع بموهبة في اتجاه ما، فضلاً عن كونه صاحب طريقة درامية في رؤية الأشياء وان انسنته تلك لا تعينه بحال من الأحوال أن يعيش ولو بشكل من الأشكال بعيداً عما يحيط به، إذ لا بد له من أن يلامس ذلك المحيط شاء أم أبى، فمن الطبيعي أن يكون الشاعر ابناً لمجتمع يصيبه قسطاً من قسوة الحياة، وما تخلّف تلك من ملابسات تُلقي بعبئها على الحياة اليومية للناس، ومنهم الشعراء الذين يتلقونها بانفعال تتلون خلالها حياتهم متأثرة بالواقع المعيش، فيؤسس الشاعر منطلقاً لتجاربه اليومية، وقد وسمت شعره الصدمات الانفعالية، فهو رهين الانفعال تارة والهدوء تارة أخرى.

ولربما استطاع الإنسان / الشاعر أن يكوّن من هذا الهدوء منطقة محايدة، يرتد إليها ساعة الهزيمة التي لا بد وان تعتري حياته، كونه كائناً اجتماعياً، فالمجتمع الذي يمكن أن نستعير له ابسط التعريفات فنقول انه نحن، أو هو الذي يترك طابعه على الفرد إجباراً لا اختياراً حيث تصبح السمة الاجتماعية وسماً طاغياً لا يمكن للفرد أن ينجو منها ،حتى إذ لاذ بأشد أنواع لانعزال وكلما ارتقى سلّمه من سلّم العمر زاد تلاحمه بذلك المجتمع،

وبما إن العمل الأدبي هو الصورة الذاتية للعالم، وان الشعر في أعماقه نقد للحياة، فأن انعكاس تلك التجارب الواقعية لا بد أن يكون واضحاً في شعر الشعراء، كونهم يمتلكون حساسية في إزاء الواقع المعيش، و حساسية المثقف عامة والمبدع خاصة مفرطة، وهي التي ساعدت هؤلاء الشعراء على التقاط واقعهم الاجتماعي الخاص، الذاتي والموضوعي بصدق وأمانة بالغتين في الدقة والوعي،ولأن الفنان لا يحيى حياة مختلفة في نوعها عن حياة الآخرين ولكنه يحياها بعمق اكبر،فان هذا العمق قد يؤدي بالشاعر إلى (التجدد) إذا ما استعار نظرة نقدية لمجتمعه، لان الشاعر الجديد هو الذي يقترح صورة جديدة للحياة والمجتمع من خلال نقده لهما،وبهذا يمتاز الشاعر عمن حوله في كونه يعيش الحدث ويومئ إلى مكوناته ويسهم في تغييره من خلال طرحه للبدائل أو المساهمة الفعلية في إحداث التغيير المنشود، وبما إن النص بوصفه كتابة فهو موقف متكامل من اللغة والذات والمجتمع، فهذه المجالات متكاملة ومتداخلة ومتفاعلة فيما بينها،و إن عظمة القصيدة لا تأتي من موضوعها بل تأتي من إجادة عرضها للموضوع الذي اختارته،بسبب الباعث الكامن وراءهـا، فالباعث دليل القصد ومعيار لتوازن الواقعين النفسي والخارجي في نفس المبدع وبذلك يفضيان إلى نص فني،ويتطلب الأمر في ذلك النزول من الصعوبة في المفردة إلى البساطة الشعرية، حتى يهب الشاعر لمفردات القصيدة اليومية شحنة تعبيرية جديدة وإشعاعاً جمالياً لا مثيل له باستثمار الأسلوب الواقعي ،فإننا نصل الى نتيجتين، الأولى هي أن حالة الإبداع مرتبطة بغائية خلق شيء من مادة معيشة بعد فهمها وتمثلها، لان الشعر بطبيعته (وعاء للإبلاغ)فضلاً عن إن شعر التجارب الحياتية لابد أن يتوافر لدى الكثير من الشعراء، لأن الحدث هو دائماً تجربة أو فكرة أو شيء حاضر دائما،ولكن قد يطغى هذا النوع عند شاعر ما، فيبدو كأنه يهيم باليومي، ويصبح هذا النوع من الشعر هو المائز له بين بني جلدته من الشعراء،ومع وجود هذا التباين تبقى وظيفة الشعراء وان اختلفوا واحدة، فالوظيفة التي يحلو للبعض إن يقرنها بالقدرة على التوصيل هي المؤثرة والمتفاعلة مع المجتمع، وهي التي تتجسد فيها مهارة وقدرة الشاعر الإبداعية على تمثل حاجات المجتمع، إذ إن الذين يستوعبون إمكانات التجارب البشرية هم قلة قليلة ولا يكون الشاعر مهماً إلا بانتمائه إلى هذه (الأقلية) مع قدرته على التوصيل،بينما يقرنها بعض آخر بالإحساس، إذ يقول كروتشة إن مهمة الشاعر أن يصور الشيء كما يراه وينقض على بوادره ويخطف في لمح البرق أشكاله المتغيرة ويجعلنا نحس نحو هذا الشيء ما أحسّه هو،وقد يقف بعضهم بوظيفة الشاعر عند حد الإشارة والإيماءة للحدث بعيداً عن إثارة الصخب،إن الشعر هو ملجأ لا هجوم، فالشاعر لاجئ حساس ولكن ليس له أن يواجه الحياة الحديثة بكل ما فيها وهو يهتف عالياً لمعاصريه الصامتين المرهقين ،ويذهب بعضهم إلى إن وظيفة الفنان والشاعر هي بعث الحياة في هذا العالم أو إن شئت فينا نحن،فالشعر هو الذي يحدث البهجة ويمنح المجتمع مزيداً من الإحساس بعلاقة القصيدة بالقارئ ودور الشعر في المجتمع،وليس لنا أن نبحث في وظيفة الشعر والحدود التي تقف عندها تلك الوظيفة، ولكن الذي يعنينا من كل هذا إن للأدب وظيفة اجتماعية و(فائدة) لا يمكن أن تكون فردية صرفاً،ولكن قد يلوح لنا سؤال مفاده إذا كان الشاعر ينقل لنا تجربته إلى حدّ ما أو تطابق تجارب الآخرين نقلاً أميناً، فما هو فضله في ذلك، إذ بإمكان أي إنسان أن يتبنى عملية النقل تلك وبموضوعية؟

والحق إن الشاعر ينقل الشيء كما يجب أن يكون،وان الذي يرتقي إلى مستوى الأهمية في عملية النقل تلك هو العمل الأدبي (القصيدة) لان الفنان الصادق لا يغيب عن ذهنه مطلقاً غموض العالم الذي يحياه ولكنه لا ينظر إلى الأشياء المتنافرة بفضول طفل، وإنما يعمل فكره في ترتيب ما يراه داخل نموذج ما أن هذا الشعور بالنظام والشكل هو الذي ينقله لنا الفنان من خلال عمله الفني مهما كان نوع ذلك العمل،وبما إن الحقيقة التي تخلقها القصيدة إنما تستمد من تجارب حقيقية وانفعالات وبيئات وان الفن ليس انعزالياً -كما أسلفنا- والعمل الأدبي تعبير عن شيء)،فان الإنسان قبل البدء في عملية الكتابة لابد أن يكون له شيء يريد قوله ،والقصيدة ما لم تكن ذات دلالة فلا تعد قصيدة ففي قصيدة (غيرة) للشاعر (مصطفى جمال الدين)التي يصور فيها حادثة عاشها في صباه، وهو في ذكرها راوياً، نراه وقد انكفأ الى الماضي، عامداً الى استعمال(الأفعال الماضية)التي إذا ما أحصيناها كانت كالآتي: (أتتني، محتْ، قالتْ، فديتك، وجدت، شاقني، شاع، رام، فاض، انتشر، هداني، عرفتُ، وصفتَ، شبه ، انفجر، صار، فأخجلني، فانزويتُ، وكانت، اضهرتْ،غفرتْ، راعني، صدَر، تطاير، ألقت، عرفتُ، هداها، أذهلت، سار، عثر) أي استعمل في قصيدة متكونة من ثمانية عشر بيتاً،(ستة وثلاثين) فعلاً ماضياً، فبدت القصيدة وكأنها تعيش الماضي وبما إن القصيدة التي تعيش الماضي تغمرها الحسرة والحنين لكن تسودها نبرة الاستقرار، لان هذا القطاع الزمني قطاع ساكن وأكيد انتهكت أسراره ولم يبق فيه من عناصر الحركة غير التيار النفسي الراجع في فعل الحنين، لذا فان قصيدة (غيرة) ربما تكون قد فقدت انفعال آخر ،وضع الشاعر من اجله قصيدته هذه، ولم تحتفظ بشيء سوى الحنين الى تلك الحادثة اليومية المتمثلة بعثور المرأة (الحبيبة) على (صورة محت شكلها عابثات الغِيَر)، فجاءته قائلة(من المتقارب):

فديتـكَ.... إني وجدتُ
على معرض الفن هذا الأثر

فأصابتها الغيرة التي أراد أن يخفف الشاعر من حدتها بالملاطفة فانبرى يخاطبها:

وسوف تظلين رهن الجمال
يروقك في عينه......والأثر

ولكنها تذكّره ما قالٍ لها مسبقاً حين وجدته بين (الصبايا الأخر):

إنها غَيرةٌ......وحاشـاكَ من سقطات الـغيَر

والقصيدة حوار بين الشاعر والمرأة، أما في جزئها الأخير فيبدو الشاعر فيها (منزوياً)، والانزواء لم يأت كما أراده الشاعر - (فانزويتُ لأوهمها إنني في كدر) - حيلة يتوصل بها الى الغفران، بل جاء هذا الانزواء احتماءً من حالة الغضب، وتفادياً لشرر الغيرة المتطايرة إذ نراه يقول:

فما راعني غيرَ هذا الذي
تطايرَ من عينها كالشرر

ثم يتوارى عن عين الناظر معترفاً، مقراً بما اقترفت يداه:

(بأن نعم : فذي صورتي) ؟؟

ثم يلجأ الى التأسي والتماس العذر للمرأة / الغيورة:

وكم غيرة أذهلت رَبها
فما سارَ في الدرب إلا عثر

والشاعر هنا متقوقع داخل تجربته، وكأنه لا يظهر استعداداً للتعاون مع من هو خارج حدود تجربته الشخصية،فان قصيدته هذه أغلقها على شخصين فقط، الشاعر الراوي والمرأة المروي عنها، المنتمية إليه.

أما قصيدة (بقية الورد) فهي قصيدة خطاب لآخر / غائب وكل مخاطبة رسالة، تتحرك في الاتجاه الآخر، خطوة لإقامة اتصال ما، لبدء حوار محتمل،والآخر هنا المرأة التي عدها الشاعر (صانعة الجنة) الغائبة حساً ،والحاضرة دائماً من خلال الذاكرة تارة، والأثر تارة أخرى، ذلك الأثر المتمثل (بالدولاب) و (المرآة) و (العطر)، والمخاطبة هنا آتية من خلال فعل الأمر (عودي) الذي استعمله الشاعر هنا راجياً ومتمنياً ،وهذا ما يفهم من صيغة الخطاب الذي استهل الشاعر قصيدته به إذ قال(من السريع):

عودي فقد ملَّ الدُجى سُهدي
واختلجَ المصباحُ من وجدي

والرسالة إذ بدأها الشاعر سوّغ أسباب نشأتها باللجوء الى التجسيم وإضفاء الحسّ على كلٍّ ما هو معنوي، فجعل الدجى يصاب بالملل لكثرة سهاد الشاعر، والمصباح يختلج، والليل لا يفهم الشكوى، والصبح لا يسمع ما يُبدى ، لان ميل الشاعر الى تجسيم المجردات، وتشخيصها ينم عن شوق الى استحضار ما هو غائب، والقبض على زمن مراوغ يفلت من الإنسان، وعلى عوالم ورؤى تعذب خياله فيحاول أن يقتنصها ويودعها أقفاص المادة المحسوسة ، فضلاً عن ذلك فإننا نجد في التشخيص أبعادا زمانية ومكانية وصوتية هامسة تأتي من أعماق النفس الذائبة في حسرتها، وتتفق الأبعاد الثلاثة لتسهم في بث حياة مصورة ولا يتأتى ذلك عن انفعال طائش،

ثم يتجه بعد ذلك الى البيت الذي صورّهُ مكتظاً بسكانه، وعلى الرغم من ذلك نرى الشاعر وحيداً إذ يقول:

والبيتُ يكتظُّ بسكانه
لكنني اسكنهُ وحدي

ففي هذه العبارة يريد الشاعر أن يعبر عن لا مبالاته بالآخرين، وانفصاله عنهم، لذلك لا يُشرك الناس أو الغائبين معه في ضمير واحد مثل ضمير المتكلمين ولا يتوجه إليهم بضمير المخاطبين،وحين تخذله (جنة الذكرى) - على خصوبتها - وتعجز عن إروائه و (إطفاء وقده)، يلجأ الى آثار الحبيبة ،المتمثلة بمقتنياتها الخاصة، ولأن أي شاعر ذي خيال حسي يميل الى تشبيه المجرد بالمحسوس ،من قبيل الكشف عن حدة الألم الذي يستبد به، ومقدار اللوعة التي تتولد عن التناقضات المتحكمة به ، فشاعرنا يلجأ إلى التجسيم ويضفي على دولاب الحبيبة حساً يجعله حافظاً على بقية عطرها، ولكن حتى هذا اللجوء لم يكتمل وهذا ما ندركه من عبارة الشاعر (كم جئته) التي تبين تكرار الفعل مع الشعور بخيبة ذلك التكرار وعدم جدواه.إذ يقول:

(دولابك) العودي كم جئـتهُ
امسحُ في مرآته خدي
لعلها تحفظُ في سـرها
بقـيةً من ذلك الورد !

كما إننا نلاحظ الشاعر وقد أحتفظ بتجربة حياتية مرّت به، في زمن ما ليستعيدها لحظة الكتابة، وتكون تلك التجربة مخزوناً ثـراً، يغترف منها الشاعر معانيه، ويطوّع لها اللغة التي تحتاجها، كي تظهر على سطح الورقة وتقرب منا الشاعر فيغدو لنا شاعر قصيدة حياتية يومية

العلامة مصطفى جمال الدين

شاعر الوطن من شماله إلى جنوبه

محمد مصطفى جمال الدين
نجل الشاعر

مساء الأربعاء ٢٣-١٠-١٩٩٦ توقف في دمشق قلب العلامه وشاعر العراق الكبير السيد مصطفى جمال الدين الذي غاب عنا جسداً وبقيَ علماً وفكراً وأدباً ونضالاً جسدَّ النموذج الأمثل لرجل العلم والأدب ولشاعر قدير يمثلُ بشعره ذاكرة عصر ولا يقّل عنٍ شعر عمالقة العصر إن لم يتفوق عليهم عذوبةً وقوة . واليوم إذ يستذكر العراقيون والعرب الشاعر مصطفى جمال الدين الذي حملَ همومَ شعبه وأمته ووطنه في شعره وجسدها فكراً ومضموناً وعاطفةً شجيةً . كانت له دراسات معمقة في مجالات مختلفة من الدراسات الإسلامية والأدبية فقد كتب في الفقه والأصول والنحو واللغة والبلاغة والمنطق وعروض الشعر والسياسة ..ولد مصطفى جمال الدين في ٥-١١-١٩٢٧ في قرية (المؤمنين) في سوق الشيوخ جنوب العراق ودرس في جامعة النجف الدينيه وقد واكب حركة التجديد في الحوزة العلمية في النجف فأكمل دراسته الأكاديمية في كلية الفقه في النجف الأشرف وتخرج فيها عام ١٩٦٢م وحاز على شهادة (الماجستير) في الشريعة الإسلامية من جامعة بغداد عام ١٩٧٢م بدرجة جيد جداً ثم (الدكتوراه) في اللغة العربية من جامعة بغداد عام ١٩٧٩م بدرجة امتياز . زاول التدريس في كلٍ من كلية الفقه وكلية الآداب جامعة بغداد وكلية أصول الدين في مدة تزيد على عشرين عاماً وتخرجت علىٍ يديه أجيال كثيرة . طبعت له من المؤلفات : ١-(القياس حقيقته وحجيته) ٢-(الأستحسان حجيته ومعناه) ٣-(البحث النحوي عند الاصوليين) ٤-(الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيله) ٥-(الانتفاع بالعين المرهونه) ٦-(ديوان عيناك واللحن القديم) ٧-(الديوان) اضافة الى العديد من البحوث الفقهية والعلمية والسياسية .

مصطفى جمال الدين العالم والفقيه الذي أشتهرَ بالشاعر قد أجتمع حوله الجميع فكان محط أنظار الجميع فتآلفت حوله القلوب فكان رمزاً للوطنية والانتماء الصادق لتربة الوطن فقد تغنى بحب العراق أرضا وسماءً وشعباً وعشق بغداد فكتب لمعشوقته ثلاثة قصائد من عيون قلائد الشعر العربي اهمها قصيدة ((بغـداد))الخالدة والتي ألقاها في مؤتمر الشعر العربي المنعقد في بغداد عام ١٩٦٥م .

بغدادُ ما اشتبكتْ عليك الأعصرُ
إلا ذوتْ ووريقُ عمرك أخضرُ
مرت بك الدنيا وصبحُك مشمسٌ
ودجتْ عليك ووجهُ ليلك مقمرُ
وقستْ عليك الحادثاتُ فراعها
أنَّ احتمالك من أذاها أكبـرُ
حتى إذا جُنَّتْ سياطُ عذابها
راحتْ مواقعها الكريمةُ تسخرُ

وجسدَّ جمال الدين في شعره حبَّ الوطن والخشوع ببابه وهو يحلمُ بالعودة لذلك الوطن الجريح العالق في العيون .

ويا وطناً لو ان (الخلدَ) أزرى
برونقه لقلتُ له : حسـودُ
أديمُ ثراكَ أروعُ ما نُفَدِّي
ونبعُ رواكَ أنبلُ ما نـرودُ
أحُبُّكَ بل أحبّ خشوعَ نفسي
ببابكَ حينَ أحلُمُ بي أعـودُ

ويضع مصطفى جمال الدين تعريفاً للوطن فما هو الوطن عند مصطفى جمال الدين ؟

انه الأرض التي يتنفس فيها الانسان الحرية وقلب يخفق بالحب وإذا انعدم ذلك القلب الكبير ينعدم معه الوطن ليظلَ ذكريات لذلك الثرى العباق .

وطنُ الناس تربةٌ نبتها العزُّ
وقلبٌ بحبِّهـم خَفَّـاقُ

ولم ينسَ مصطفى جمال الدين أمته العربية ولم يتوانَ عن قضاياها الملحة فيعلو صوت جمال الدين بعد نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧م بقصيدته المشهورة (للثأر والفداء)

لملم جراحكَ واعصفْ أيُّها الثارُ
ما بعد عار (حزيران) لنا عارُ
وخلِّ عنكَ هديرَ الحقِّ في أذن
ما عادَ فيها سوى (النابال) هدَّارُ

وحين يرى تقاعس أمته عن أداء واجبها تدوي قصيدته في مهرجان الشعر العربي المنعقد في دمشق عام ١٩٧٢ م والتي كانت بعنوان (شهيد الفداء)

يَبسَ الجرحُ فانتفضْ يا شهيدُ
نامَ عَن ثأرك الكماةُ الصيدُ
العيون التي تجمَّرَ في الـ
سهدُ يوماً قد ملَّ منها الرقودُ
والسيوف التي تفجَّرَ فيها الـ
حقدُ حتى ذابت عليها الغمـودُ
وترانا والمسجدُ القدسُ منّا
قيْدَ باعٍ لم ندْرِ كيفَ نعيـدُ
هل لنا من صلاتنا بعدَ هذا الذُلِّ
إلا ركوعُها والسجـودُ

ويقارع مصطفى جمال الدين الدكتاتورية حاملاً هموم شعبه الى بقاع الارض فكان صوته هو الصوت المعبر عن معاناة الشعب العراقي وما يلاقيه من جلاديه ففي قصيدة (يقظان)

نبئوني يا من بـ (رفحاءَ) بانوا
كيفَ يغفو بليلها اليقظـانُ
كيف هزت عواصف الرمل مهداً
ضجرتْ من بكائه الأوطـانُ
ضاقَ فيه حضنُ الفراتين ذرعاً
فتلقته هذه الكثبـانُ
نامَ أطفالهم لديه وغصـتْ
ببقايا أطفالنا الوديـانُ
غيرَ أنّا على الصحارى وما هنْـ
ـنا ، وهم في ذُرى القصور وهانوا

ويبقى حنينه للوطن ولمهد طفولته ولقريته التعبى فتمتدُّ مفردات حنينه الى منبع رافديه ويرى ملتقى فرعي حبيبته ملتقى رافديه ومروجهما الخضراء وكلامها ماهو إلا لحن من خرير ساقية أو عزف رعاة

يا أنت يا وطناً حملتُ ربوعه
في غربتي وجمعته بشتاتي
عيناك منبعُ رافديه وملتقى
فرعيك خضر مروجه النضرات
وإذا نطقت سمعتُ عذبَ لحونه
بخرير ساقيةٍ وعزفِ رعـاة
وأكاد - إنْ هوَّمتَ- أحضنُ قريتي
التعبى ، وقد غرقت بليل سبات

ويظل حنينه للوطن متمثلاً بحنينه الى رملة النجف الأشرف لكنَّه لم تكتحل عيناه بتراب الوطن والذي كم تمنى أن يراها قبل مماته

يا رملةَ النجفِ الشريفِ تذكري
ظمأَ العيون ففي يديكِ الموردُ
حنَّتْ، فكانَ لها بذكركِ مسرحٌ
وشكتْ ،فكانَ لها برملكِ إثمدُ
أعززْ عليَّ بأن أراكِ فريسةً
لنيوب وحش لم يزلْ يترصدُ
يُعميه أنكِ للعراقِ منارةٌ
ولشعبه عندَ الشدائدِ مُنجـدُ
وبأنَّ حمراء القباب تزينها
لهمُ، دماءُ سَراتها ، لا العسجدُ
فطغى ليغسلَ فيكِ عارَ هزيمة
ألقاهُ فيها مَن بهمَ يتمـردُ
كذِّبّ الغرورُ،فلن يهدَّ عقيدةً
سيفٌ لدى (أم المعاركِ) مغمدُ

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
نائب رئيس التحرير
عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
الاخراج الفني: نصير سليم
التصحيح اللغوي: نوري صباح
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

بغداد ما اشتبكت عليك الاعصر

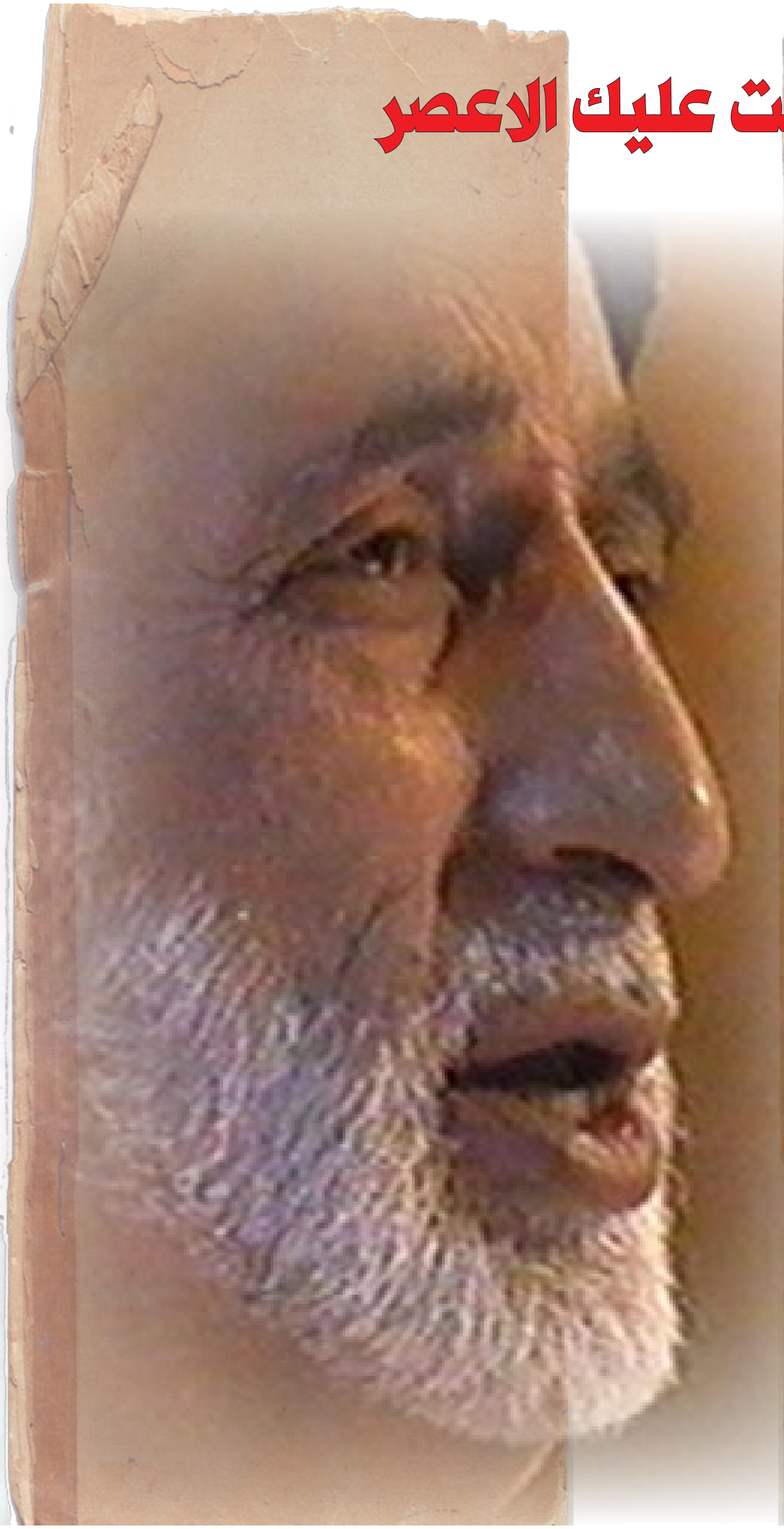

مصطفى جمال الدين

بغداد ما اشتبكت عليكِ الاعصرُ
إلا ذوت ووريق عمركَ أخضرُ
مرّت بك الدنيا وصبحك مشمسٌ
ودجت عليك ووجه ليلك مقمرُ
وقست عليك الحادثات فراعها
ان احتمالك من أذاها اكبرُ
حتى اذا جُنت سياط عذابها
راحت مواقعها الكريمة تسخرُ
فكأنِ كِبرك اذ يسومك تيمرٌ
عنتاً – دلَالُك اذ يضمك جعفرُ
وكأنِ نومك اذ اصيلك هامدٌ
سنةٌ على الصبح المرفه تخطرُ
وكَأن عيدك بعد الف محولة
عيدُ افتتاحك وهو غض مثمَرُ
لله انت فأي سرٍّ خالد
أن تسمني وغذاء روحك يُضمرُ
ان تشبعي جوعاً وصدروك ناهدٌ
او تظلمي أفقاً وفكرك نيرُ
بغداد بالسحر المُندى بالشذى ال
الفواح من حلل الصبا يتقطرُ
بالشاطئ المسحور يحضنه
الدجى
فيكاد من حُرقِ الهوى يتنورُ
واذا تهدَّج بالرَصافة صوتهُ
جفلت بمصر على صداه الاقصرُ
والان يابغداد يأزف موعدٌ
لك في الخلود قلوبه تتنظرُ
من كل من اعطاك غضّ شبابه
ومضى بذابل عمره يتعثرُ
يترقبونك : والطريقِ امامهم
جهم المسارب ضيقٌ مُستوعرُ
يبس الزمان وهم على اطرافه
عذب بما تَعدينه مُخضوضرُ
فتعهدي ما يأملون وانعشي
لقياهم فهم بمجدك اجدرُ
رفعوك من قطع القلوب وحقهم
منك الوفاء لهم بما هو اكثرُ